المشـــكلة الايطالية فى السياسة الألمانية
فى العصور الوســـطى

الدكتور رأفت عبد الحميد

أستاذ مساعد العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس

فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وعقارب الزمن تشير الى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن ، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصـــول مسرحية كان قد جرى اخراجها من قبل بمائة واثنتين وستين سنة على وجه التحديد •

ففى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة •• أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧٩٩ ، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) تاجا ، وليعلنـــه امبراطـــورا للرومان وكان البـــابا ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه ، مستغيثا بالملـــك الفرنجى ، متخوفا من ضربات اللومبارد فى الشمال الايطالى ، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقينا ماسوف يجره عليـــه هذا التتويج من خلافات قد تصل الى العداء مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج الرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية ، فقد ادعى كاتب سيرته ومادحه اينهارد Einhard فى عمله الباقى Vita Caroli ان شارل

العظيم لم يكن يعلم عن هذه الناحية شيئا[1] وليس بخاف على أحد ان شارلمان — وان لم يكن قد خلع على نفسه لقب الامبراطور حتى تلك اللحظة ، الا أنه كان يحمل جوهره ، ويرفل فى حقيقته نتيجة توسعاته فى فريزيا وسكسونيا ، وحروبه مع المسلمين فى الأندلس ، ونشاطاته المتعددة فى الداخل لتوحيد الثقافى

والحقيقة التى لا مراء فيها ، ان امتداد شارل العظيم امبراطورا فى الغرب على يد البابوية ، كان يمثل التتويج العملى لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين ملك الفرنجة الميروفنجية ، ومن بعد الكارولنجية ، والكنيسة الرومانية ، بدأت منذ زمن طويل يعود الى عهد كلوفيس Clovis فى أوليات القرن السادس الميلادى عندما تحول الفرنجة وحدهم — والناس فى ذلك الزمان على دين ملوكهم ، الى المسيحية النيقية الكاثوليكية وراء زعيمهم ، دون القبائل الجرمانية الأخرى التى آوت الى المسيحية الأريوسية ، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وايمانا[2] هذا من ناحية ، ومن الأخرى مسيرة العداء السافر قدما ، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية ، بفعل التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يسعر لهيبه حمى الخلاف العقيدى الذى كانت الحروب

---

(١) ناقشت هذه القضية باستفاضة فى تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص١٦ — ٣٠ ولمزيد من التفاصيل انظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans. by : Lewis Thorpe, in (Two lives of charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969. G. Baraclough, The Mediaeval Empire · Idea and Reality.

وقد نقله الى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ص٣٨ — ٤٢ ، ١٨٣ — ١٨٩ . وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 62-64. وأيضا : ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص١٧٢ — ١٨٧ .

(٢) أنظر للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل الثانى .

اللاايقونية ذروة توهجه ، والتى وجدت فيها البابوية فرصتها للتخلص من نفوذ ولو ضئيل لسلطة شرعية تتمثل فى أباطرة بيزنطة ، الى كيان تتبادل واياه مصالح مشتركة ، تمنحه التاج ، ويقدم لها الحماية والأمان .

والآن .. تؤدى البابوية بالمهارة نفسها ، ذلك الدور ، فيبعث البابا الغر يوحنا الثانى عشر صيحات الاستغاثة الى الملك الألمانى أوتو الأول السكسونى ، بعد أن راح اللومبارد يهددون ممتلكاته فى وسط ايطاليا ، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة ، ويوقعون به الأذى ، بعد أن سرى فى المدينة تهتكه وخلاعته مسرى الفضيحة (٣) .

وفى عام ٩٦٢ أتى أوتو الأول روما ، وأعاد البابا الى كرسيه الأسقفى ، وأعلن بوجوده العسكرى فى هيئة القديس بطرس حمايته لراعى الكنيسة فيها ، فكان جزاؤه أن عاد الى المانيا محملا بتاج الامبراطورية ، على غرار ماجرى لشارل العظيم منذ قرن ونصف من الزمان وينيف .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى قدم فيها أوتو الى ايطاليا ، لكن مجيئه السابق كانت له أسبابه الخاصة بايطاليا وألمانيا على قدر سواء ، ولكن البابوية لم تكن صاحبة الدعوة آنذاك ، ذلك أن الفوضى التى ابتليت بها ايطاليا فى القرن العاشر الميلادى ، ووقوعها بين أيدى قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغرافى ، كانت من بين العوامل الهامة التى

---

(٣) عن شخصية يوحنا الثانى عشر ، راجع

Stephenson, Mediaeval history pp. 243-245.

وأيضا Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152

ويصفه أورتون Orton بقوله « ليس هناك ذرة من أمل فى انتشاله من فسوقه » أنظر C.M.H. Vol. III, p. 161. وعن فساد البابوية بصفة عامة فى القرن العاشر والدور الذى قامت به سيدات المجتمع الرومانى أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marosia وسلطانهم المباشر ونفوذهم فى اختيار البابوات حسب هواهن ، راجع

Tout, The Empire and Papacy, pp. 29-30.

استحثت خطى الملك الألمانى على أن يقود جيشه عبر الالب باتجاه الشمال الايطالى ، فايطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعين خارجها والعابثين فيها، منذ أقدم الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) على تدمير قوة مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس الميلادى • ورغم أن خليفته غير المباشر ــ موريس Maurice (٥٨٢ ــ ٦٠٢) حاول تدعيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحوف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستنيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الايطالى ، وذلك عندما أقدم على اقامة أرخونية رافنا ، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية لمواجهة كافة الاحتمالات الا أن وجود نائب امبراطورى يتضاءل كثيرا أمام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط • كما أن وسط وجنوب ايطاليا لم يكونا بمأمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القرن التاسع الميلادى على صقلية ، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك • وهكذا باتت ايطاليا ، التى لم تعد سوى تعبيرا جغرافيا ، موزعة اشلاؤها بين اللومبارديين فى الشمال والوسط ، والبيزنطيين فى ابوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط ايطاليا وترنو ببصرها الى أبعد من ذلك ، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة•

فاذا أضفنا الى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحى الحياة ، ثراء منطقة لومبارديا ، وخصب الريف الايطالى ، وسحر روما القديمة بكلاسيكيتها والوسيطة بمسيحيتها وقديسيها بطرس وبولس ، أيقنا أن هذه كلها كانت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع • وفى هذا السبيل بذلت المحاولات من ناحية رودلف الثانى Roudolf II ملك برجنديا ، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الايطاليين ، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ • بل ان دوقات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب الى هذه المنطقة ،

وفى مقدمتهم دوق سـوابيا وهو ليودولف Liudolf ابن أوتو الملك الألمانى ، وكذا هنرى المشاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم(٤) .

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين اقطاعيين من أفصال أوتو الأول ، حتى لو كان أحدهما ابنه . سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه ، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كما تقضى سمات النظام الاقطاعى والملكية الألمانية الانتخابية ، ولكنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد الى الأذهان سيرة سلفه العظيم شارل الكارولنجى ، فتلقى تاج الملكية الألمانية فى آخن ، وأصر على أن يكون حفل التتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أفصاله الاقطاعيين وليس مجرد مراسم شكلية تقليدية(٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليقف فى وجه أطماع كل من ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا ، وانتهز فرصة الاستغاثة التى جاءته من ادلهيد Adelheid أرملة أحد المتنازعين على عرش مملكة

---

(٤) أنظر : Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49-51.

وأيضا Scott, Medieval Europe, p. 71.

وكذلك Strayer & Munro, op. cit., pp. 152-153.

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان ، ابرهارد Eberhard دوق فرنكونيا ، وهرمان Herman دوق سوابيا . وأرنولف Arnolf دوق بافاريا ، وجيزلبرت Giselbert دوق اللورين بالمهام التشريفية مابين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم ، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الاطاعى ، غير أن الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو ، فكبار الأمراء الألمان لابد ن يكونوا أفصالا تابعين يعملون فى خدمة التاج ، أما دوقياتهم فليست الا اقطاعا من الملك . أنظر :

Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.

وأيضا Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

لومبارديا ، تطلب فيها عونه ضد برنجار Berengar ماركيز ايفريا Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العرش بالزواج من الأرملة الحسناء هذي ، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين وترك برنجار فصلا تابعا له فى شمالى ايطاليا .

واذ كان دافع أوتو الأول للتدخل فى ايطاليا عام ٩٥١ هو محاولته الوقوف فى وجه دوقى سوابيا وبافاريا ، والحد من أطماعهما ، فان هذين لم يكونا أقل حرصا على مبادلته المعاملة بالمثل ، فقد كان الأمراء العلمانيون يدركون تماما ما الذى يعنيه وجود ملك قوى على العرش الألمانى ، ولذا فقد أعلنوها حربا أهلية ضروسا ، استهدفت فى المقام الأول الاطاحة بأوتو من على العرش ، كما استهدفت فى الوقت ذاته حياته فاندلعت الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا ، ودوق اللورين واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ — ٩٥٥) حتى تمكن الملك الألمانى من اخمادها ، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسى فى أن يولى أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه .

على أن النتيجة الرئيسية التى خرج بها أوتو من هذه الأحداث ، تمثلت فى سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء ، وتفتيت الدوقيات الكبيرة ، حتى لايجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة الملكية ، بل ان هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيين لتمتد الى الاكليروس ، ذلك أن السياسة الكنسية التى تبناها أوتو وسار عليها خلفاؤه ، وكانت بعينها تلك التى وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) Constantinus I وثيودوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) Theodosius I وجوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) Iustinianus والتى اذا كانت تعترف بحق الكنيسة فى مناقشة المسائل العقيدية ووضع نظمها ، فانها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن باقى الهيئات الأخرى تحت سلطان الامبراطور الذى عد نفسه مسئولا مسئولية مباشرة أمام الله . ثم أليس بيبين الأول Pepin I هو الذى دافع عن

للبابوية ، وعن طريق هبته الشهيرة نشـــأت الدولة البابوية ؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا البابوات وأثروا الكنيسة ؟ ومن ثم فرجال الكنيسة ، شأن الموظفين العلمانيين ، ليسوا الا رعايا الامبراطور ، انطلاقا من اعطاء ما لقيصر لقيصر[٦] . وفى المقابل كانت الكنيســـة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهى قد نشأت دون مساعدة أحد ، وكثيرا ماكتب آباؤهم وعلى رأسهم أوغسطين Augustinus ان المؤسسات السياسية كانت النتيجة التلقائية لخطيئة آدم[٧] .

وبناء على ذلك، يمكننا أن نفسر الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفا لمينز Mainz ، عندما حاول الملك الألمانى التدخل فى شئون الكنيسة هناك ، فرفع الأسقف الابن الأمر الى البابوية فى روما . وهنـــاك أدرك أوتو أن أياديه البيضـــاء على الكنيسة الألمانية مازالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الاكليروس اليه ، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما ، وأنها ليست مستقلة الشأن ، ولذا فقد آمن أن عليه اذا ما أراد السيطرة على الكنيســـة الألمانية بعامة أن يبسط سلطانه أولا على الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر ، فان الطريق الى الاكليروس الألمانى يبـــدأ من رومـــا .

وواتت أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفســـها ، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لنجدته من مضايقات

---

(٦) أنظر : Stephenson, op. cit., p. 247.

(٧) أنظر Pirenne, A history of Europe, pp. 136-7; 184-5.

وراجع : Augustinus, De Civitate Die, XXII, 22.

وكذلك Paoluci, The political writings of St. Augustinus, pp. 1-183.

برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك الباوية • ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ علم ٩٥٧ ، الا أن أوتو كان مشغولا عن البابا بنفسه ، يحاول تثبيت دعائم سلطانه ، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه ، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى الى روما ليجيب البابا الى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة الرومانية •

وفى فبراير ٩٦٢ ، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة واثنتين وستين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألمانى ، من يد يوحنا الثانى عشر ، البابا الرومانى ، تاج الامبراطورية • وهذه الحادثة تشير بما لايدع مجالا للشك الى أن أوتو الأول راح يسلك سبيل سلفه العظيم شارل ، أو على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان ، أن الملكية الألمانية كانت موجهة الى السير على درب الثيوقراطية الكارولنجية [٨] مع فارق لايخفى شأنه ، هو أن الكارولنجيين عملوا على جعل الدولة هيئة دينية ، بينما حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية[٩] •

وما كان لأحد أن يدعى لقب ملك اللومبارد ، ويتشح برداء شارلمان ، ويحمل لقب امبراطور الرومان ، ويتدخل بصورة عملية ومباشرة فى شئون ايطاليا « الممزقة » ، دون أن يورط نفسه ودولته فى مآزق لا حصر لها ، وأن يفتح على نفسه جبهات من العداء كان عليه حتما مقضيا أن يكتوى بمياسم سعيرها ، بفعل الاضطرابات الداخلية بين اللومبارديين والبابوية والنبلاء الرومان والبيزنطيين والمسلمين ومن بعد النورمان •

على أنه مما تجدر الاشارة اليه بادىء ذى بدء ، أن أوتو الأول جاء الى ايطاليا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول ، وأن ظروف ألمانيا الداخلية ، ومحاولته المستميتة اقامة ملكية ألمانية قوية ، يجلس على عرشها ملك مقتدر ، يحنى له الأفصال من العلمانيين والاكليروس ، الهام

8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitutions, p. 98.

9) Pirenne, op. cit., pp. 136-7, 184-185.

اجلالا وتوقيرا ، كانت الباعث الرئيسى وراء مقدمه على التـــدخل فى المشكلات الايطالية • واذا كانت الدعوة قد جاءته من البابوية ، فان الدافع كان كامنا فى ألمانيا • خاصة وأنها كانت فى القرن العاشر الميلادى تفوق بكثير جاراتها ، وأصبحت ذات مركز مرموق فى قيادة عالم المسيحية فى الغرب الأوروبى[١٠] ومن ثم فلا مجال هنا لما يرمى به بعض المؤرخين أوتو من لوم معتبرين اياه قد انساق بذهابه الى ايطاليا وراء تحقيـــق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى ســـــلفه العظيم شارل [١١] وان كان هذا لاينفى أن أوتو الأول هو الذى وضع أســـس سياسة الارتباط الكامل بين ايطاليا والمانيا ، لقرون طويلة سواء فى القوة أو الضعف[١٢] وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك •

---

10) Mayer, The historical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة أن المانيا كانت أسعد حظا من فرنسا وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر ، ففى فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس ، بينما تحطمت ايطاليا تحت ضربات النبلاء ، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانيين بعد وفاة الفرد العظيم سنة ٨٩٩ وخاصـــــة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر ، هذا فى الوقت الذى تقدم فيه الأمـــراء الالمان على اختيار أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الالمانى ، ورغم أن هذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سلطان الملكية على المدى طويل ، الا أنه أعطى المانيا حكما قويا .. وقد عاد الأمراء الالمان الى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا . انظر :

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3.

وايضـــا Strayer & Munro, op. cit., pp. 147-149.

وكذلك C.M.H. vol. III, pp. 311, 323-325.

11) Stephenson, op. cit., pp. 245-247.

Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163.

ودكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى . جـ١ ص٢٧٥

12) Tout, op. cit., p. 32.

وايضـــا Pirenne, op. cit., p. 139.

فلقد كان حمل لقب « امبراطور الرومان » يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل ، فهذا اللقب وان كان بصورة أخرى — أعنى « الامبراطور الرومانى » يحمله الأباطرة الرومان الشرعيون فى القسطنطينية ، وليس لأحد أن ينافسهم فيه . فسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس فى روما القديمة ، الى قسطنطين العظيم فى روما الجديدة ، وصولا الى الجالس على العرش آنذاك نقفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبدا بوجود امبراطوريتين رومانيتين ، بل هى امبراطورية واحدة ، حتى وان جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان ، بل وان تنازع على هذا العرش ستة أباطرة(١٣) .

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان ، وهم أعداء الامبراطورية ، البعيدون حضاريا عن سمتها ، قد أدركوا هذه الحقيقة فى جلاء ، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أودواكر Odovacar فى عام ٤٧٦ عندما عزل رومولوس أوغسطولوس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من الامبراطورية ، وبعث بتاجه وصولجانه مع وفد من السناتو الرومانى ، الى امبراطور النصف الشرقى فى القسطنطينية ، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الامبراطورية يكفيها الان وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور فى مدينة قسطنطين ، ويطلب اليه أن يعتبره نائبا عنه فى حكم ايطاليا . وبغض النظر عن النتيجة التى انتهى اليها أمر أودواكر وموقف زينون منه ،

---

(١٣) على عهد الامبراطور دقلديانوس كان يحكم الامبراطورية أوغسطسان وقيصران ، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس ، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه أبناؤه الثلاثة ، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ ابناه أركاديوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى ، أما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥ .

فهذا بلا شك يعد اعترافا صريحا من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الامبراطورية • ولم يدر بخلد أودواكر ، وكان باستطاعته ذلك ، ولا بخلد غيره من زعماء بني جنسه ، أن يعلن من نفسه امبراطورا منافسا أو حتى شريكا ، وكان بمقدورهم جميعا أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيدهم مقاليد الأمور فى شطري الامبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عام ٣٩٥ (١٤) •

وهكذا لم يجرؤ أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عندما تساقطت ولايات النصف الغربى للامبراطورية فى أيديهم ابان القرن الخامس الميلادى وطوال قرون آتية • ومن ناحية ثانية فان الحروب العسكرية التى خاضها الامبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذى الضائعة ، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالامبراطورية الواحدة • ولم يكن خلفاء جوستنيان أقل « رومانية » منه فى هذا السبيل وان اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم •

وهكذا أحجم الجرمان فى ضوء (وعيهم) بوحدة الامبراطورية عن اقامة امبراطور من بينهم فى الغرب ، ولكن البابوية اجترأت عندما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان امبراطورا ، متحدية بذلك مشاعر الأباطرة الرومان فى القسطنطينية • ولعل هذا هو الذى دعا كاتبه ومؤرخه اينهارد Einhard أن يذكر فى كتابه « حياة شارل » Vita Caroli عدم معرفة الامبراطور مسبقا بمسألة التتويج ، رغم ما فى هذا القول من مغالطة واضحة(١٥) كى يظهر سيده بمظهر

---

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العام لجيوش الامبراطورية ومقره فى الغرب « ميلانو » حيث توفى ثيودوسيوس . بينما آلت الى زميله جايناس الجرمانى الأمور فى القسطنطينية .

15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.

الذي لم يكن طامعا في شيء من ذلك ، حتى لايجر على دولته عداء القسطنطينية .

والبابا في روما — بعمله هذا — تخطى حدود سلطانه الروحي وراح يمارس سلطات زمنية غير قانونية ، فهو من الناحية الرسمية واحد من رعايا الامبراطور ، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية[16] ولعداوات طويلة بين روما والقسطنطينية ، زادها ضراما تأجج نيران العداء تجاه الايقونات الذي حمل الأباطرة الايزوريون والعموريون مشعله ، ووقوف روما معارضة متحدية ، كل هذا دفع البابوية كي تتوج جرمانيا امبراطورا للرومان . وكان هذا — أعني لقب « امبراطور الرومان » وليس « الامبراطور الروماني » بالألف واللام والنسبة ، هو الذي حمله شالمان . وحتى على هذا النحو لم يحظ شارل العظيم الا باعتراف واهن في عام ٨١٢ من جانب الامبراطور ميخائيل رانجابيه Michael I Rangabe نتيجة لظروف سياسية عصيبة كانت تعانيها الامبراطورية البيزنطية ، ولم يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السناتو في القسطنطينية لم يصدق عليه ، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من الحياة[17] .

ومن ثم فان الامبراطورية البيزنطية وهي في أوج قوتها وازدهارها زمن المقدونيين ، عصرها الذهبي ، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب الروماني من حق أباطرتها وحدهم دون غيرهم . وكان أوتو الأول يعلم

16) Ibid, 28.

17) Ibid, 17.
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, I, p. 268.

وايضا ديفز : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العريني . ص ١٧٨ — ١٨٩ .

ودكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا . ص١٧٨ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ص ١٧٨ — ١٨٨ .

هذه الحقيقة تماما ، حتى أن لقبه التقليدى ظل دائما « الامبراطور العظيم » Imperator Augustus ولم يرد ذكر روما فيه ، ولهذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصى فحسب • ومع ذلك فان عملية التتويج وما تبعها من التدخل الرسمى فى شئون ايطاليا ، وضعه وجها لوجه أمام الامبراطورية الرومانية « البيزنطية » فى وقت كانت آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة الى الغزو تحت قيادة نقفور فوقاس(١٨) •

ومع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن من المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركز قوى لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى pars Occidentalis أمام قوة المسلمين فى الجنوب الايطالى وعداء الملوك السكسون ، الأباطرة الجدد ، ولذا سعت للحفاظ على الحالة الراهنة status que هناك ، وشرع الامبراطور باسل الثانى فى تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى ايطاليا الجنوبيتين اللتين اتحدتا الان تحت سيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الاكزارك ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية(١٩) • ورغم أنه كان أمرا بعيد المنال أن يقوم فى الغرب شبيه لتلك الامبراطورية الرومانية Imperium Romanum القائمة فى القسطنطينية • الا أن خلفاء أوتو الأول ، خاصة سميه ، ولده وحفيده ، وهنرى الثانى ، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للادارة البيزنطية فى ايطاليا ، وحمل أوتو الثانى لقب امبراطور الرومان وأصبح ملازما له لايفارقه ، وظهرت عبارة « الامبراطورية الرومانية » فى المكاتبات الرسمية زمن هنرى الثانى وكونراد الثانى(٢٠) • وبات الفرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذى

---

(١٨) جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية . ص٢٠٦

(١٩) هسى : العالم البيزنطى : ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد . ص١٥٣ — ١٥٤ .

(٢٠) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق . ص٢٠٨ — ٢٠٩ وأيضا Bryce, op. cit., pp. 142-146.

جاء الى ايطاليا لدوافع المانية ، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة « الامبراطورية » ، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة « السكسونية » لاوتو الأول ، والسياسة (الرومانية) لخلفائه(٢١) .

واذا كان التدخل الألمانى فى ايطاليا ومشكلاتها العديدة ، حتى غدا الارتباط بينهما وثيقا ، قد أغرى الأباطرة الألمان بالاصطراع مع «بيزنطة» حول « رومانية » الامبراطورية فى الغرب ، فان الرغبة الشديدة فى الوصول الى حوض البحر المتوسط ، وهى منطقة لها أصالتها الحضارية ، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مع القسطنطينية ، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادى عشر ، على حوض البحر المتوسط الشرقى بعد انحسار موجة المد الاسلامى فيه آنذاك . وهذا كله يفسر المحاولات العسكرية التى قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثانى فى جنوب ايطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة ، وتوسيع حدود « الامبراطورية » على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل ، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يد المسلمين ، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة . وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقت بالامبراطورية الألمانية ، ظهر أثرها واضحا فى أنها قضت لمدة قرنين تاليين على طموح الامبراطورية الغربية فى السيطرة على وسط ايطاليا وجنوبها(٢٢) .

ولم تحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون بذل الجهود الدبلوماسية بين الامبراطوريتين ، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن

---

(21) The origins of modern Garman, p. 62.

(٢٢) C.M.H. Vol. III, 169-170. وأيضا دكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص٢٧٩ وكذلك دكتور ابراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ص٢٦٤ وأيضا : Vasiliev, op. cit., I, p. 328.

أوتو الأول ونقفور فوقاس ، تضمنها ذلك التقرير Relatio de Legatione Constantinopolitana الذى وضعه ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremono مبعوث الامبراطور الألمانى (٢٣) ، والذي يتسم بالحقد والسخرية اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا الأسقف — في اعتقاده — بمظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به • وقد استمرت هذه المفاوضات على عهد يوحنا تزيمسكس Iohannes Tzimisces وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصول عليه ، زوجة بيزنطية تدعى ثيوفانو Theophano لابنه ووريثه أوتو الثانى ، وهى تنتمى لأسرة من كبار ملاك الأراضى ، وليست من البيت الامبراطورى كما كان يشتهى •

وقد ساهمت التغيرات السياسية التى طرأت على خريطة المنطقة فى ازدياد ما بدا أنه تقارب ودى بين الامبراطوريتين ، ذلك أن النورمان وقد ورثوا البيزنطيين والمسلمين على السواء فى جنوب ايطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر ، ورثوا أيضا العداء التقليدى تجاه الامبراطورية الألمانية ، ومن ثم أدرك الطرفان أن عليهما أن يعملا معا ضد عدوهما المشترك ، وظهر هذا واضحا فى عدة أمور منها ، زواج الامبراطور مانويل كومننوس Manuel Commenus (١١٤٣ — ١١٨٠) من برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III (١١٣٩ — ١١٥٢) وهى التى عرفت باسم الامبراطورة ايرين Irene عند اقترانها بمانويل (٢٤) • وأدى هذا الزواج السياسى الى زيادة التقارب بين الرجلين خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التى قادها كونراد

---

23) Liutprand of Cremona, report, in (Contor, Med. World, pp. 166-176.

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومننوس (١١١٨ — ١١٤٣) وكونراد ، حيث طلب الأول الى الأخير أن يختار من بين الاميرات الألمان زوجة لابنه مانويل انظر :
Letter of Conrad III to the «Greek emperor John Comnenus, 1142

الثالث بالاشتراك مع لويس السابع ملك فرنسا ، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨ ، تعهد فيها الأخير برد ايطاليا الى الامبراطور كبائنة لايرين (برتا) ، وان كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختفت من المصادر الغربية ، وتدور أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة « ايطاليا » ، هل تعنى جنوب ايطاليا فحسب أم ايطاليا كلها ؟[٢٥] .

غير أن فترة العسل القصيرة هذه سرعان ما انتهت باعتلاء فردريك بربا روسا Frederick I Barbarossa عرش ألمانيا ، فقد كان الرجل يطمح فى مملكة النورمان فى صقلية وعرش القسطنطينية على السواء . ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Euginius III على عدم التخلى عن « أية منطقة » على هذا الساحل « لملك اليونان » Rex Grecorum وهى التسمية التى كان يحلو لفردريك الألمانى أن يخلعها على امبراطور القسطنطينية ، بل ان هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطرة الألمان ، كما يتضح من الرسالة التى بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومنينوس سنة ١١٤٢[٢٦] ومع ذلك فقد حاول الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس أن تظل روابط المودة قائمة بين الدولتين ، فعرض عليه التحالف ضد النورمان فى الجنوب ، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى ، وان كان السفير البيزنطى قد نجح بدبلوماسيته وأمواله فى ضم عدد من المدن على رأسها انكونا Ancona والمتمردين النورمان ، وأخيرا البابوية ، مما عده فردريك خرقا لاتفاقية كونستانس[٢٧] .

وأمام هذا التغير فى السياسة الألمانية ، شن مانويل هجومه على

---

(٢٥) هسى العالم البيزنطى . ص١٩٣ وقارن
Ch. Brooke, op. cit., pp. 373-4.
وايضا : Z. N. Brooke, A history of Europe, 911-1198, pp. 284-331.

26) Letter of Conrad III to the « Greek emperor John Comnenus, 1142
Letter of Frederick I. to Eugene III.
وايضا :
27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292-294.

جنوب ايطاليا انتهزا الفرصة التى قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجر الثانى سنة ١١٥٤ ، غير أنه لم يحقق نجاحا يعتبر به ، بل ازدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية من جانب فردريك برباروسا الذى راح يشجع سلطان قونية السلجوقى على المجاهرة بالعداء للامبراطور البيزنطى ، حتى اذا لقى اهذا الهزيمة القاسية عند ميريوسيفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ كتب فردريك اليه رسالة تقطر احتقارا وتوعدا الى ضرورة خضوع « ملك الروتان » للامبراطور الرومانى ، يعنى نفسه ، وأعلن فردريك نفسه وريثا للامبراطورة الرومان ، وادعى أن ذلك يتضمن السيطرة على المملكة اليونانية Regnum Greciae (٢٨) بل ان فردريك برباروسا تمادى فى سياسته ، فكتب الى ابنه وخليفته فى المانيا ، هنرى السادس ، وهو فى الشرق يقود جحافله ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة ، يأمره باعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية ذاتها ، ورغم أن هذا لم يتحقق الا أنه يدل على مدى العداء بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الألمان . غير أن الظروف السياسية التى راجت تعانى كل منهما عنها باعدت بين عدائهما ، اذ لم تمض سنوات قلائل على وفاة فردريك برباروسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتين جنود الحملة الصليبية الرابعة ، القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، فخرجت بذلك الامبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم فى نيقية وايبروس وطرابيزون ، ولتحل محلها امبراطورية لاتينية حتى عام ١٢٦١ عندما تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية . بينما دخلت امبراطورية الألمان فى صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلمانى وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية ، بالاضافة الى المحاولات الجادة التى بذلتها أسرة الهوهنشتا وفن Hohenstaufens فى ألمانيا للسيطرة على مملكة النورمان فى صقلية وجنوب ايطاليا ، مما يشكل خطرا جسيما على نفوذ البابوية وسلطانها وسط ايطاليا .

---

(٢٨) هسى العالم البيزنطى ص١٩٧ .

وكانت البابوية قد اعترفت فى اتفاقية ملفى Melfi التى عقدت سنة ١٠٥٩ ، بين نيقولا الثانى Nicholas II من ناحية ، وزعيمى النورمان ، ريتشارد دوق أفرسا Aversa وروبروت جويسكارد بشرعية حكم النورمان لجنوب ايطاليا ، مقابل اعترافهم بالتبعية للبابوية ودفع جزية سنوية (٢٩) ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الراحل ليو التاسع فى التصدى لطموحهم ، وهزيمته على أيديهم عند كيفيتاتى Civitate عام ١٠٥٣ وأسره لديهم بضعة شهور . كما أن البابوية وجدت فيهم — ربما — حليفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان فى روما ، وعدوها اللدود ، الامبراطور الألمانى . وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم الى جانب أسلحتها الروحية « الحرمان والمصادرة » سلاحا زمنيا فتاكا ، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءها . وتمثل هذا بصورة واضحة عندما استنجد بهم البابا جريجورى السابع للتصدى لقوات هنرى الرابع التى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مرات فى الفترة ما بين عامى ١٠٨١ — ١٠٨٤ ، وإن كان النورمان ، حلفاء البابوية ، لم يرعوا للمدينة حرمة ، فاستباحوها وعاثوا فيها فسادا ، مما دفع جريجورى السابع الى الارتحال فى صحبتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان .

ولم تلبث هذه العلاقات الودية أن تحولت الى تحالف رسمى بين البابا هادريان الرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٦ ، كانت أهم سماته اعتراف البابوية بحق الملك النورمانى فى الاشراف على عملية اختيار رجال الاكليروس فى مملكته (٣٠) وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها ، وتناضل من أجله ضد ملوك المانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر) ، تعنى مشكلة التقليد العلمانى ثم السيادة

---

29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.
ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث .. انظر
Haskins, The Normans in European history, pp. 202-204.
(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى
Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 181-183.

العالمية . ويمكن القول بصورة واضحة ان هذا التحالف كان موجها بصفة رسمية الى فردريك الأول بربا روسا ، الامبراطور الألمانى ، الذى لم يكن طموحه يخفى على ملوك النورمان فى صقلية ، ولا خطره يغيب عن البابوية ، خاصة وأن فردريك كان يعتبر أقاليم جنوب ايطاليا وصقلية جزءا من مملكته الألمانية ، مما دفعه الى ابداء معارضته واحتجاجه لدى هادريان الرابع على هذا التحالف ، معتبرا اياه نقضا لشروط معاهدة كونستانس Constance التى وقعت بينهما عام ١١٥٣ وتجاهلا لادعاءاته هذه (٣١) . غير أن هادريان الرابع كتب الى فردريك رسالة مطولة دحض فيها هذه الاتهامات ، وأبان عن أن اتفاقه مع النورمان لا يعنى اهانة موجهة الى الملك الألمانى « لأن الأراضى التى يسيطر عليها وليم ، ليست من حق فردريك ، بل هى ممتلكات البابوية »(٣٢) مشيرا الى ماجاء

---

(٣١) من المعروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقوق الملك الألمانى فى جنوب ايطاليا وصقلية ، راجع نص المعاهدة فى
Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178-180.

(٣٢) راجع نص الرسالة فى
Tierney, The crisis of church and state pp. 105-106.
وايضا : Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 183-185.
وهذه الرسالة ذات مدلول هام فى تاريخ الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية ، فقد تضمنت كلمة beneficia والتى فسرت فى حضرة الامبراطور فى بيزانسون Besancon سنة ١١٥٧ على انها تعنى كون الامبراطورية « اقطاعا » للامبراطور ، وكاد المندوب البابوى يلقى حتفه على يد انصار فردريك لولا تدخل الأخير بنفسه لمزيد من التفاصيل انظر :
Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.
وايضا : C.M.H. Vol. V, pp. 390-391.
وكذلك Bryce, op. cit., p. 166. Davis, op. cit., p. 326.
وقد أصدر فردريك برما روسا بيانا فى الشهر التالى مباشرة (اكتوبر ١١٥٧) يفند فيه — ما اعتقد أنه ادعاءات بابوية ، واضطر هادريان الرابع ان يبعث برسالة ثانية الى الامبراطور فى أوائل عام ١١٥٨ يوضح فيها أنه لم يعن بكلمة beneficia « اقطاعا » بل يعنى بها « جميلا » أو (عملا طيبا) . راجع بيان فردريك ورسالة هادريان الثانية فى
Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186-188.
وعن هذا التفاصيل كلها ، راجع للباحث « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » بحث منشور فى المجلد الثالث من « ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط » .

فى إتفاقية « أملفى » باعتبار الممتلكات الفورمانية فى الجنوب اقطاعا بابويا .

ورغم ذلك لم يتخل فردريك بربروسا لحظة واحدة عن ادعاءاته فى جنوب ايطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثانى وريثة عرش النورمان ، زوجة لابنه هنرى السادس ، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة ، ولدولته اتساعا ، ولسلطانه امتدادا . ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبما تشتهى نفس فردريك الطموحة ، فجرت الظروف السياسية فى المنطقة على غير ماكان يتمنى هو أو خلفاؤه ، ذلك أن الارتباط الوثيق بين المانيا وجنوب ايطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرحى ، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله . ولما كان طبيعيا أن يعض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز ، وتبذل البابوية الجهد ، كل الجهد ، فى سبيل الحيلولة دون نجاحه ، جرى النزاع سافرا أحيانا ، خفيا أحيانا أخرى ، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما الى درجة أسقرت فى النهاية — كما سنرى — عن تحطيم الامبراطورية .

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية ، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما ، والميراث الحضارى الماثل لكليهما ، فما خلفه المسلمون فى صقلية على امتداد قرنين من الزمان ، هما فترة مكثهم فيها والذى حرص النورمان ، السادة الجدد ، على الافادة منه الى حد بعيد جدا ، كان يعد شيئا مغايرا تماما لما كان عليه الحال فى ألمانيا ، وبينما كانت الملكية فى المانيا انتخابية ، اذا هى وراثية فى صقلية . كما أن القطيعة الجغرافية بينهما والتى طولها شبه الجزيرة الايطالية ، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما . وبمقتضى المعاهدات التى عقدت بين البابوية وملوك النورمان

فى صقلية ، كان هؤلاء الأخيرون ، أو بعضهم يعتبرون البابوية صاحبة السيادة الاقطاعية فى البلاد ، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك بالنسبة لبلادهم ، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية ، ولعل ماوقع فى بيزانسون[٣٣] خير دليل على ذلك • وفوق هـذا كله وذاك ، لم يكن مقت الصقليين لملك ألماني يتولي أمورهم ، أقل من كراهية الألمان لذلك اذا ماحدث واعتلى عرشهم صقلى[٣٤] •

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى يعارض انتقال العرش الى ملوك أسرة الهوهنشتا وفن ، وأن يقدم هـذا الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشـقيق وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩ ، ضاربا عرض الحائط بحق كونستانس فى ميراث عرش أبيها ، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس • بل لقـد سعى هذا الحزب الى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان ، فجـذب الى صفه جماعة الولفيين Welfs (Guelfs) فى ايطاليا ، الاعـداء التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن ، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول مـلك انجلترا وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة قائدا لجيـوش بلاده فى الحملة الصليبية الثالثة ، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى •

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الايطالى الانجليزى ، فقاد جيوشه الى ايطاليا سنة ١١٩١ ، ووضع على رأسـه التاج الامبراطورى ، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه ، الا أن القدر عوضه عن ذلك بأن ساق اليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسره ريتشارد

---

(٣٣) راجع الحاشية السـابقة .

(٣٤) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى — الجزء الأول ، ص٢٠٧

ملك انجلترا أثناء عودته من الأراضي المقدسة (٣٥) . أو بتعبير آخر — على حد قول فرانك بارلو F. Barlow امتلك هنري السادس — في شخص ريتشارد ، مفتاحا من ذهب سوف يفتح أمامه جميع الأبواب الموصدة (٣٦) . ذلك أن هنري استغل هذه الفرصة بذكاء كبير ، فضمن أن يقف الى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augstus ملك فرنسا ، العدو اللدود لملك انجلترا ، وجون الانجليزي أخو ريتشارد ، اللذان طالبا هنري أن يبقى عدوهم المشترك في أسره دون فكاك . وان كان الملك الألماني قد أطلق سراح خصمه بعد عامين من الأسر لقاء فدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك ، بالاضافة الى خمسين ألفا أخرى مقابل أن يحاه من وعده بمساعدته ضد النورمان (٣٧) . وفي نفس العام حالف الحظ هنري مرة أخرى اذ مات تنكرد النورماني ، فتم تتويج هنري الملك الألماني ، وامبراطور الرومان ملكا على صقلية وأبوليا وكالابريا .

هكذا امتد سلطان المانيا على جنوب ايطاليا وصقلية ، لكنه كان سلطانا مزعزعا ، يتهدده العداء النورماني الكامن في الجنوب ، والفوضى العارمة التي توشك أن تعصف بالمانيا ذاتها ، من جراء انشغال ملوكها بطموحاتهم الخاصة في مملكة الصقليين ، والحقد البابوي والكراهية المقيتة يحملها الجالس على كرسي القديس بطرس في روما تجاه هذا « الانتشار » الألماني ، والذي أوقع البابوية بصورة عملية بين فكي « كماشة » ألمانية اذا كان أمرا طبيعيا أن يرفض البابا تتويج فردريك الثاني ابن هنري السادس وكونستانس ، في حياة أبيه ، في الوقت الذي قبل الألمان اختياره ملكا على المانيا .

---

(٣٥) وكان ريتشارد قد اسر على يد ليوبولد الرابع Leopold IV دوق اوستريا سنة ١١٩٢ الذي سلمه بدوره لسيده الملك الألماني هنري السادس في عام ١١٩٣ بناء على طلبه . للمزيد من التفاصيل انظر :
Barlow, op. cit., pp. 361-364.

(٣٦) انظر Ibid. 164.

(٣٧) المرجع السابق . الصفحات نفسها .

ولم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت فى المانيا عقب وفاة هنـرى السادس عام ١١٩٧ بين الولفيين بزعامة أوتو الرابع دوق برنسـويك ، والهوهنشتا وفن تحت قيادة فيليب السوابى ، واستمرت سـتة عشر عاما كاملة ، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة ، وتدخل فيها البابا انوسنت الثالث بصورة سافرة ، متقلبا بين الجانبين بما يحقق مصالحه الزمنية فى المانيا وايطاليا على حد سواء ، هذا فى الوقت الذى حرصـت فيـه كونستانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك ، غير أن البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجته فى سنة ١٢٠٩ فى أعقاب مقتل فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف الى جانب الأمراء الكارهين لأوتو الرابع ، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثانى ملكا عليهم سنة ١٢١١ .

وقد يبدو هذا الأمر غريبا الى حد كبير ، فالبابوية تبذل قصارى جهدها كى تقف عقبة كأداء فى سبيل اتمام أى نوع من الترابط بـين المانيا ومملكة الصقليتين ، والتى آلت الى ملوك المانيا الآن . فاذا بها تساند فردريك الثانى ملك صقلية وترفعه على العرش الألمانى ليضـع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية ، بعد أن كان قد ثبت الأولى فى صقلية . لكن الغرابة سرعان ماتختفى ، اذا أدركنا أن انوسنت الثـالث أراد أن يصطنع لنفسه فردريك ويتخذه أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذى راح يمارس ـ بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعـدائه الهوهنشتاوفن تجاه ايطاليا وصقلية والحبر الرومانى . ولاشـك دار بخلده أن فردريك سـوف يكون له فى نفسه كل التقدير بعد أن أعاد اليه حقا كان يبدو بعيد المنال . غير أن الأحداث خيبت فأل البابوية .

فمنذ نجاح هنرى السادس فى فرض سيادته على جنوب ايطاليا وصقلية عام ١١٩٤ ، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعى لعرش النورمان ، ورثوا معه أيضا تطلعهم الى السيادة على عالم البحر المتوسط ، وصادف ذلك هوى كبيرا فى نفس فردريك الثانى بصـفة خاصة ، ولم لا وقد أمضى سنى عمره الأولى فى شوارع صقلية ، وأجاد العربية ، ونهل من

الثقافة الاسلامية ، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطموح الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات ، وتعمق فى بعض من العلوم، حتى صار « محير العالم » أو (أعجوبة الدنيا) Stupor Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانية التى انحرفت بالسياسة الامبراطورية عن دروبها الرئيسية • لقد كان الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والامبراطورية unio regni ad imperium الذى أراده فردريك ، السبب المباشر فى انحراف هذه السياسة الامبراطورية عن جادة الصواب[٣٨] •

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والامبراطورية ، وفتح باب الصراع على مصراعيه ، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب هذه الجولة الأخيرة ، والا كان فيها نهايتها ، فحشدت أسلحتها ، وسعرت لهيب نيرانها ، وأقدم البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عزل فردريك ، فلما حيل بين المؤتمرين والحضور ، بجهود الملك ، جدد البابا انوسنت الرابع الدعوة ثانية فى سنة ١٢٤٤ والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل فردريك الثانى[٣٩] • وشهدت السنوات الخمس الباقية من عمر الامبراطور عددا من الثورات فى شمال ايطاليا وجنوبها ، وحركات تمرد فى داخل ألمانيا ذاتها ، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على ألمانيا • ورغم أن فردريك حقق بعض الانتصارات فى شمال ايطاليا،ولقى الأمير الهولندى الهزيمة على يد كونراد ابن فردريك،الا أن ذلك لم يجد نفعا، حيث مات الامبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠[٤٠] وعندها تنفست البابوية الصعداء ، ورأت فى موته فرصتها السانحة للاجهاز على الامبراطورية ،

---

38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى

Tierney, The Middle Ages, vol. I.

Source of Medieval history, p. 272.

40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426-428.

وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة ، سرعان ماتحولت الى ضحكة عالية وهى ترى مانفرد Manfred الابن غير الشرعى لفردريك ملكا على عرش صقلية ، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الرابع ، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهذا ماكانت تطمح اليه البابوية ، بمعنى تقطيع أوصال الامبراطورية ، وفسخ عرى الارتباط بين المانيا وايطاليا ، وهو ماجاهد فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى للحيلولة دون وقوعه •

واذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقق نصرها الكامل ، فقد اهتبلت ماسنح لها على التو ، وراحت تعرض عرش صقلية على ادموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك انجلترا ، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة ، وان كان الى حين ، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل ، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou اخى لويس التاسع ملك فرنسا ، بقبول العرش الصقلى باعتباره اقطاعا بابويا • ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن ، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفنتو Benevento فلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى المانيا ، كونرادينو ، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده ، وهى مهمة صعبة وثقيلة ، لم يكن أسعد حظا من عمه ، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨ • وقد سيق الصبى ، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره ، الى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والامبراطورية أمرا لا سبيل الى الشك فيه أو العودة اليه •

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تتحيط بالبابوية ، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة ، تنسى كلية مهامها الروحية

ورسالتها الرعوية ، وتضع نصب أعينها شيئا واحدا وهدفا محددا هو السيادة الزمنية على العالم المسيحى ، وهو شىء كانت قد جعلته مبتغاها منذ أسقط قناع التقليد الطمانى بمقتضى اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ بين هنرى الخامس وكالكستين الثانى Calixtus II ، وحققت فى ذلك نجاحا لا بأس به عندما تزعمت عالم المسيحية فى الغرب وقادته لحرب المسلمين فى الشرق تحت راية الصليب ، واعتلت سمت نجاحها عندما أسقط جنود الصليب فى الحملة الصليبية الرابعة ، القسطنطينية ، درع المسيحية فى الشرق وحامية الأرثوذكسية فى مطلع القرن الثالث عشر (١٢٠٤) ، الى الحد الذى دفع البابا انوسنت الثالث الى الاشادة فى رسائله الى قادة الحملة بغزوهم للقسطنطينية ، واعتباره فتحا عظيما ونصرا للبابوية نفسها على « امبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة » (٤١) .

غير أن رياح النصف الثانى من القرن نفسه ، حملت لها نذير الكوارث المتتالية لهذا الامتداد الهائل لنفوذها فى الشرق المسيحى والامارات اللاتينية فى الشرق الاسلامى ، بل والحركة الصليبية ذاتها ، فقد لقى لويس التاسع الملك الفرنسى ، والقديس ، هزيمة مروعة فى مصر عام ١٢٥٠ ، وتلك كانت ضربة قاصمة للصليبية فى أوروبا ، اذ لم تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت الى الظل الروح الصليبية نفسها . ولم تفلح جهود لويس فى بلاد الشام خلال أربع سنوات قضاها هناك ، وكان فى حملته على شمال افريقيا سنة ١٢٧٠ ، حتفه (٤٢) . وقبل ذلك بسنوات

---

(٤١) راجع دكتور اسحق عبيد الدولة البيزنطية فى عصر باليولوجوس ص ١٣ — ١٤ .

(٤٢) فى عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة الى تونس ، غير أنه توفى على أبواب قرطاجة ، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية ، فى وقت كانت فيه تحتضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر يدعى رتبوف Rutebeuf يقول فيها « أن من الحماقة أن يخاطر الانسان فى حرب دينية خارج بلاده اذا كان بوسعه أن يتصل بالله وهو فى وطنه يعيش فى سلام . ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال . راجع مذكرات جوانفيل عن القديس لويس ، ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشى ، ص ٣١٠ — ٣١٣ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

قلائل ، تلقت البابوية صفعتين متتاليتين ، اذ فقدت فى عام ١٢٦١ سيادتها على القسطنطينية ، حين تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus من استرداد العاصمة البيزنطية والقضاء على الامبراطورية اللاتينية واقامة أسقف أرثوذكسى ثانية فى كنيسة القسطنطينية • ولم يأت مايو عام ١٢٦٨ حتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس ، سلطان مصر المملوكى ، قد استردوا امارة أنطاكية الصليبية ، ولم يبق للغرب اللاتينى فى الشرق الا طرابلس وبعض القلاع على ساحل بلاد الشام • ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها البابوية جيدا ، فصممت على أن تحقق لنفسها نصرا على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التى قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبى •

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل اليه أمر الامبراطورية الألمانية من جراء تورطها فى ايطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد • واذا كانت السياسة الألمانية فى ايطاليا على النحو الذى رأيناه — قد أدت بالنفوذ الألمانى فى الخارج الى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتى انتهت باعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن ، تلك الأسرة التى تمثل العظمة الاقطاعية فى العصور الوسطى ، فكيف يمكن أن يكون عليه الحال فى ألمانيا ذاتها من الداخل • واذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقف العدائى السافر تجاه السياسة الألمانية فى ايطاليا وصقلية ، فان مافعلته داخل ألمانيا كان أشد وأنكى • وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا •

فقد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول ، مهمة الاصلاح الكنسى بعد أن تردت البابوية خلال القرون من السابع الى الثلث الأول من الحادى عشر فى هاوية الانحلال الكامل ، غير أن مفهوم الاصلاح كان يختلف عند كل منهما عن الاخر • فالاصلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى أن تتطهر الكنيسة من أمراضها الداخلية مثل السيمونية

وزواج رجال الدين ، وأن يعتلى كرسى القديس بطرس فى روما ، بابوات مصلحون ، شريطة أن يكون للامبراطور السلطة الكاملة على شئونها ، والتدخل المباشر فى اختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا ، وهذا واضح تماما فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو امبراطورا عام ٩٦٢ ، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبيه وتحوله الى جانب برنجار اللومباردى عدو الملك الألمانى ، والقاضية بعدم الاقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما الابموا فقة الامبراطور[٤٣] . ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب البابوية باسم جريجورى الخامس ، وهو أول بابا المانى يعتلى الكرسى البطرسى ، ومن أشد المتحمسين لحركة الاصلاح الكنسى ، فلما قبض صغيرا ، عين الامبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطلق أيضا أقدم الامبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين ، ولم ير فى ذلك شيئا سوى اصلاح الكنيسة الكاثوليكية . وان كان من وجهة النظر الامبراطورية[٤٤] .

أما البابوية فقد كان لها رأى آخر ، فالاصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدى العلمانيين ، أيا كان شأنهم أو مراتبهم ، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا . واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقيب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الامبراطورية فى ايطاليا ، من جراء غض العمر الذى كان يعانيه الامبراطور الطفل هنرى الرابع ، اذ أقدم الاكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas II أسقفا لروما ، وكان أهم ماتضمنه قرار الاختيار ،

---

43) Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118-119.

44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122-124.

أن تتم عملية رسم البابا فى روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج[٤٥] بل تعدى الأمر ذلك الى تحقيق العدالة والصلاح فى المجتمع •والصلاح الذى تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع ، الأنموذج الحقيقى للسلطة البابوية المطلقة ، هو الطاعة الكاملة للرب ، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا ، والخروج عليه يعد — حسب تعبيره — ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية[٤٦] وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتباره خليفة القديس بطرس ، ونائبه على الأرض ، واستخدم آية الانجيل التى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا اياه صخرته التى سيبنى عليها كنيسته ، مخولا اياه سلطة الربط والحل على الأرض[٤٧] ، وراح يباشر

---

45) The Papal election decree of Nicholas II.
وللمزيد من التفاصيل انظر : Ullmann, op. cit., pp. 135-138.

46) Letter of Gregroy VII to Henry IV.

(٤٧) ورد في الانجيل أن المسيح سأل تلاميذه يوما « من يقول الناس انى انا ابن الانسان » فأجابوه باجابات مختلفة ، الا سمعان قال « أنت هو المسيح ابن الله الحى » فأجابه المسيح « ... أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات . وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » متى ١٦/١٣ — ١٩ .

وقد استخدم جريجورى السابع نص هذه الايات فى قرار العزل الأول الذى أصدره ضد هنرى الرابع والذى كتبه فى صيغة موجهة الى القديس بطرس .

انظر :
The first deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII, in (Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 151-2).

وانظر نص القرار أيضا فى :
Tierney, The crisis of church and state, pp. 61-61.
The Middle Ages, Vol. I : Sources of Medieval History pp. 146-147.
وكذلك Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 376-377.
وأيضا Lyon, Sources in Western Civilization, The high Middle Ages, 1000-1300, pp. 92-93.

سلطات زمنية واسعة ، زادت النار ضراما فى آتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى • وبمقتضى ذلك كتب الى هنرى الرابع يطلب اليه عزل خمسة من مستشاريه السياسيين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين[٤٨] ولم ير جريجورى فى ذلك غضاضة أو خروجا على حدود سلطانه • بل ان الاذلال الذى لقيه هنرى الرابع على يد هذا البابا فى كانوسا Canossa ، عده المتعصبون للاراء الجريجورية ، أو الحزب البابوى ، نوعا من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى ، وان كانت فى صدر هذا الأخير شيئا مغايرا تماما •

وانه لمن سخرية الاقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الاصلاح الكنسى هذا ، هم الأباطرة الألمان أنفسهم ، أولئك الذين جعلوا ، بجهود أوتو الأول وسميه الثالث وهنرى الثالث ، نجاح هذا الاصلاح حقيقة واقعة • لكنهم كانوا كمن يحفرون قبورهم بأيديهم ، فقد تلاقت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان ، فى ظل النظام الاقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية ، على اضعاف الحكومة الألمانية ، وجعلها مجرد صورة شاحبة ، باهتة ألوانها ، بعد أن فرضت مشكلة التقليد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الاصلاح الكنسى الهلدبراندى أو الجريجورى •

وكان تلقى أوتو الأول التاج الامبراطورى من يد البابا ، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج الى روما لتلقى التاج هناك من البابوية ، وأصبح هذا أمرا لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الامبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية •

---

48) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا فى عبارات بليغة بقوله « لم تكن الامبراطورية بالنسبة لألمانيا قدرا محتوما ومهلكا فقط ، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية ، واضطرتهم الى التضحية بالدولة فى سبيل الكنيسة ، وأجبرتهم فى النهاية على أن يتركوا الميدان الى الظل ، بل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى ، تمثلت فى السماح للبابوية بالتدخل المباشر فى شئون المانيا الداخلية ، اذ أن الملك الألمانى ، أو بتعبير أدق ، ملك الرومان ، باعتباره الامبراطور المعين ، وحيث أن روما كانت قادرة على هذا الأمر وبصورة مباشرة وواضحة ، فقد أصبحت تدعى أن موافقتها تعد أمرا أساسيا لاختيار الامبراطور الجديد »[٤٩] . لقد كانت البابوية ، وعلى عهد انوسنت الثالث بصفة خاصة توافق على أحقية الأمراء الألمان فى اختيار مليكهم ، لكن جعل هذا الملك امبراطورا كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض ، ذلك أن الكرسى الرسولى فى روما هو الذى نقل الامبراطورية من القسطنطينية الى الغرب زمن شارلمان ، وأعاد احياءها من جديد بتتويج أوتو ، ومن هنا غدا الامبراطور فى نظر البابوية موظفا ، خلقه البابا ليكون عضده وساعده . فهو ليس الا مرآة تعكس عالمية الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر هو القمر الذى يعكس ضوء الشمس . تعنى الكنيسة الرومانية[٥٠] لذا لانكاد نجد ملكا ألمانيا واحدا على امتداد ثلاثة قرون كاملة ما بين عامى ٩٦٢ — ١٢٥٠ الا وقد جاء الى روما يسعى للحصول على اللقب الامبراطورى ، ولم يستثن من ذلك الا كونراد الثالث (١١٣٩ — ١١٥٢) ولم يكن تمردا ولا هجرانا ، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح له بهذه الزيارة ، وان كان كونراد أداة طيعة فى يد البابوية ، اذ سيرته برفقة قرينه ملك فرنسا ، لويس السابع ، لقيادة جيشه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية ، التى لم تجن تحت أسوار دمشق الا الخسران .

---

(٤٩) انظر : Pirenne, A history of Europe, p. 319.

(٥٠) انظر : Ullmann, op. cit., p. 211.

وكان هذا الأمر — نعنى عملية الحج الملكى الألمانى الى روما من أجل اللقب الامبراطورى يستتبع بالتالى وجود قوة عسكرية كبيرة يجـردها الملوك الألمان أثناء رحلاتهم هذه ، مما ترك أثره البالغ على المانيا نفسها — كما سنرى بعد قليل • وذلك لارهاب البابوية فى المقام الأول ، ولمواجهة خصوم الامبراطورية ممثلين فى المدن اللومباردية فى الشمال الايطالى ، والتى لقيت الجيوش الألمانية على يديها الهزيمة فى أكثر من موقع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تحطيم النفوذ الألمانى فى ايطاليا • والنبلاء الرومان الثائرين دوما ضد امتداد السلطان الالمانى الى ايطاليا • والغضب البيزنطى البادى فى محاولات الأباطرة المقدونيين خلال القرن العاشر استعادة بعض ماكان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغيب ، والنورمان الطامحين والطامعين فى التهام ماتبقى من الأملاك البيزنطية والأعـداء الشرسين للملوك الألمان • وازاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى ايطاليا ، فان الوجود العسكرى الألمانى بها ، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشـده أباطرة ألمانيا ، ولم يتجاوز سلطان الألمان فى ايطاليا على حد تعبير برايس حدود الزمان الذى كان يبقاه الجيش الألمانى هناك[51] •

فهذا هو أوتو الأول نفسه ، رغم دوافعه الألمانية للتدخل فى ايطاليا ، فقد جاء اليها فى خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه فى روما ، وابنه أوتو الثانى حكم عشر سنوات (٩٧٣ — ٩٨٣) أمضى الثلاث الأخيرة منها فى ايطاليا فى جهود عسكرية فاشلة • وأوتو الثالث قضى فترة حكمـه كلها (٩٨٣ — ١٠٠٣) فى ايطاليا ، ولم تره المانيا الا محمولا على أيدى الرجال ميتا ليدفن بأرضها • أما هنرى الثانى آخر الخط السكسونى ، فقد حج الى روما عام ١٠١٤ ليتوج امبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة ١٠٢٧ ، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين مابين عامى ١٠٤٦ — ١٠٥٧ ، وعسكر هنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات ١٠٨١ — ١٠٨٤ بينما جاءها هنرى الخامس مرتين ، الأولى خلال عامى ١١١٠ — ١١١١ ،

---

51) Bryce, Holy Roman Empire, p. 171.

والثانية في سنتي ١١١٦ — ١١١٧ • وحج اليها لوثر في عامي ١١٣٣ ، ١١٣٦ • أما فردريك بربا روسا فقد قاد جيوشه الى هناك في ست حملات عسكرية لم تكن كلها لصالحه ، بل لم يكن لأولها من ضرورة على الاطلاق الا اذا أدخلنا في اعتبارنا الناحية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا ، ذلك أنه من الصعب أن نجد بالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملته الأولى الى ايطاليا ١١٥٣ / ١١٥٥ فقد كان سلطانه على الكنيسة في ألمانيا يكاد يكون تاما ، على حين كان البابا غارقا حتى آذانه في مشاكله الخاصة مع أرنولد البريشي Arnold of Brescia ، بل وتجلت قوة فردريك في تعيينه أسقف زيتز Zeitz رئيسا لأساقفة مجدبرج Magdburg وحصوله على موافقة البابا على هذه الممارسة « غير الشرعية » للسلطة الملكية ، فمهما كان حق الملوك في اختيار رجال الاكليروس ، فان للبابا وحده الحق في نقل أسقف من كرسي كنسي الى آخر • ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة الا رحلة الحج التقليدية ، أو أن يكون فردريك غير راض بسلطانه في ألمانيا ، ازاء قوة أعدائه الولفيين ، ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله اليه حملة عسكرية موفقة • بالاضافة الى أنه كان غاضبا من بطء حركة مشروعاته في المانيا ، ويطمح في أن تحمل اليه ثروات المدن اللومباردية انطلاقة أسرع ، فلابد — في نظره — أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا[٥٢] •

بل ان فردريك بربا روسا لقي في ايطاليا سنة ١١٧٧ اذلالا شبيها الى حد ما بالاذلال الذي لقيه هنري الرابع قبل ذلك بمائة عام في كانوسا • وبينما أمضي ابنه هنري السادس نصف عهده القصير الذي لم يتجاوز سبع سنوات (١١٩٠ — ١١٩٧) في ايطاليا ، ومات في بالرمو ، وهب فردريك الثاني جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية •

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل ان بعض الأباطرة الألمان ، في محاولة لاسترضاء البابوية شاركوا في الحملات الصليبية ، فاضافوا الى

---

52) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.
وايضا : Ullmann, op. cit., pp. 178-188.

غيابهم عن المانيا بعدا جديدا ، وكان من بين هـؤلاء كونـراد الثالث ، وفردريك بربارومسا وسميه الثانى ، ورغم أن ثالثهم هذا قد حقق نجاحا لم يسبقه اليه الا جنود الصليب فى الحملة الأولى ، الا أن البابوية — فى جملة عدائها معه — جزته عن ذلك جزاء سنمار ، وأوقعت ضـده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم العزل من بعد .

هذا الغياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذى امتد حوالى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ — ١٢٥٠) ، وتمثلت خطورته بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم ، والاستنزاف العسـكرى المستمر لموارد ألمانيا ، والانهاك البشرى لزهرات شباب الألمان . كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملوك الألمان أنفسهم فى داخل دولتهم ، فى عصر ساده النظام الاقطاعى ، وسيطرت على مقاليد الأمور فيه أيدى الأمراء ،و تهاوت الى الحضيض السـلطة المركـزية للملوك . ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية ، وجغرافيتها المتنافرة ، وعدم دخولها ضـمن دائرة الامبراطورية الرومانية ، فقد افتقدت الحكومة المركزية ولم تعرفها الا قهرا على زمن شارلمان ، فقـد ظل الألمانى على امتداد ألف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا . ومن أجل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وان تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحيان[٥٣] . وظل الامـراء الألمان يتحينون أية فرصة تسنح لهم ليفترصوها وليحققوا من ورائها ذواتهم ومطامحهم الاقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات .

ووجد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم ،

---

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية ، أنظر للباحث : الملكيـة الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى ، بحث منشور فى ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط — العدد لثانى — ١٩٨٣ .

فقد كانت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الامبراطورية الألمانية بعدما تبين لها أنها تشكل خطرا جسيما على سلطاتها ، خاصة فى المرحلة الثانية من الصراع بين البابوية والامبراطورية فى أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢ • وفى الوقت الذى كانت الأولى فى عهدها الاصلاحى قادرة على التوصل الى تفاهم مع ملوك انجلترا وفرنسا ، فان سياسة الملوك الألمان كانت لاتروق لناظريها ، وذلك لأنها كانت بادرة يمكن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى فى أوروبا ، ومن ثم فان التقارب الذى كان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية ، والسيادة التى تحققت للملكية على الاكليروس الألمانى على عهد الفرنكونيين السالبين خاصة هنرى الثالث ، كان يعد شيئا لايتفق ومصالح البابوية(٥٤) وفى مواجهة هذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهدف الابقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والاكليروسيين على السواء لسلطانهم ، ورغم اختلاف هذه السياسات الا أنها أودت فى النهاية بموارد التاج وبالتالى هيبته ومكانته •

فقد أقدم أوتو الأول على بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الاكليروس الألمان ، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين، بعد أن أخفقت سياسته فى استخدام أقاربه وأصهاره حكاما على المقاطعات • ورغم أن هذه السياسة قد حققت نجاحا فى حينها الا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد ، اذ ساعدت على خلق طائفة جديدة من الاقطاعيين هم أمراء الاكليروس • وكان على هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) أن يبذل هو الآخر جهودا كبيرة لمعالجة الأمور المتردية التى هوت اليها المانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وسميه الثالث فى ايطاليا سنوات طويلة تقترب من ربع القرن • حتى اذا عاد الأمراء يمارسون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعد

---

54) Barraclough, Origins of modern Germany, p. 113.

بحق وفقط « الأول بين أقرانه » كما أسلفنا ، فرفعوا على العرش كونراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) الذى كان عليه لزاما أن يوقف استنزاف أراضى التاج الذى درج عليه الأمراء العلمانيون والاكليروسيون سواء • لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد الى خلق طبقة جديدة من صغار النبلاء اصطفاها الى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء ، وأولئك يمثلون محدثى النعمة ممن لا أصول لهم ، وليست لهم جذور نبيلة ، فاضحوا على المجتمع الألمانى من بعد وبالا •

وشهدت السنوات التسع (١٠٥٦ — ١٠٦٥) التى قضاها هنرى الرابع يعانى غض العمر وسن القصور ، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولة، لمحاولة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات ، ذلك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية ، تجاسرت على أن تضع يدها على مساحات شاسعة من الأراضى الملكية مدعية حق السيادة عليها • بل بلغ بهم الأمر الى حد اختطاف هنرى الرابع نفسه من بين أحضان أمه والوصية عليه الملكة آجنى Agnes لينشأ تحت رعايتهم ، وراحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسى لدخل التاج ، نعنى الأديرة الملكية • ولم يكن هؤلاء المختطفون الا الداهية آنو Anno رئيس أساقفة كولونى ، وادالبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج — بريمن Hamburg-Bremen وبات على هذا النحو واضحا أن الوصاية على الملك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة [٥٥] وحينما أصبح هنرى الرابع قادرا على التخلص من هذه الوصاية ، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولئك لاسترداد كل الأملاك والامتيازات التى اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه • ولم يغفر له الأمراء هذا ، ولا صفحت عنه الكنيسة •

---

55) Thompson & Johnson, op. cit., p. 374.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلمانى أصدر البابا جريجـورى السابع قراره الشهير بحرمان هنرى الرابع وعزله

«a nathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus»

وأعلن أن هنـرى الرابـع لم يعـد من حقـه أن يعتـلى العـرش iustitio aum regnare prohibet وتم تحرير رعيته من الخضوع له أو الالتزام بأى واجبات أو تعهدات تجاهه(٥٦)

«Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti eidem promissi sit absolutus».

وكان هذا يعنى فى حد ذاته تحريضـا لرعاياه للثورة ضده ، فاندلعت الثورات فعلا فى مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا • وأذلت الامبراطورية فى شخص هنرى عند كانوسا ، وذهبت الحـادثة فى التاريخ مثلا(٥٧) ومع أن الأحوال التى أمست عليها المانيا عام ١٠٧٥ عنـدما بدأ الصراع بين هنرى الرابع وجريجـورى السابع ، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديه السافر للملك الألمـانى ، حيث كانت تختلف اختلافا تاما عما تركها عليه هنرى الثالث لحظة وفاته ، اذ راحت تسير الملكية الألمانية الى التفكك ، وظهرت قوى جديدة كانت فى الحقيقة مجرد عوامل اجتماعية أكثر منها سياسية ، ولعل ذلك يعود الى سياسة كونراد الثانى فى اصطفاء عناصر غير معروفة ، بالاضافة الى ازدياد العداء من جانب الارستقراطية العلمانية ، والمعارضة الكاملة من جانب الاكليروس تجاه فكـرة الثيوقراطية التـى طبقها هنرى الثالث بعـزل وتعيين البابوات ، نقول انه رغم ذلك ، فقد كان تدخل جريجورى فى المانيا ، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنرى الرابع ، بل على امتداد التاريخ الألمانى ، اذ دمر هذا التدخل كل الخطط التى جاهـد

56) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

(٥٧) الدلالة الوضحة لهذه الحادثة هى خضوع الدولة للكنيسة . وقد وعى المستشار الألمانى الأشهر فى القرن التاسع عشر ، بسمارك ، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة « لن نذهب الى كانوسـا » .

هنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية ، وغير تغييرا كاملا أشكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا • ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى مابين عامى ٩١١ — ١٠٧٥ ، مهما كانت الصعوبات والمعاناة ، كانت شيئا رائعا • لقد سلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك انجلترا النورمان بعد خمسين سنة من الان ، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصلوا اليه قبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة ، وكانت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديسمبر ١٠٧٥ [٥٨] تفجيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى ، وفتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى[٥٩] •

فقد وجدت النبالة الاقطاعية فى ألمانيا فرصتها التى تبحث عنها فى قرار العزل الذى صدر ضد هنرى ، وادعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur [٦٠] ومارسوا رياضتهم المفضلة فولوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف السوابى Rudolf of Suabia رغم أن هنرى عاد من رحلته المهينة الى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا • وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ — ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه الى ازدياد أوار

---

58) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

59) Barraclough, op. cit. p. 97.

(٦٠) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى اكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساخطين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية ، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى ، وخلع المؤتمرون طاعة هنرى ، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة • والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر ، ثم انسل تاركا الدير متجها الى ايطاليا للقاء البابا ، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا للحضور الى المانيا • وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الاذلال الشهيرة •

هذا الصراع ، حتى اذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له •• هيرمان Herman الذى لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقم له أحد وزنا على الاطلاق •

واستمرأت النبالة الألمانية أفعالها ، فدفعوا كونراد ابن هنرى الرابع الى أن يرفع فى وجه أبيه راية العصيان ، ونادوا به ملكا عام ١٠٩٣ ، تشد البابوية من أزرهم بيد أوربان الثانى • ولئن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل ، فان غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنرى الرابع من العمر أرذله ، اذ رفع الأمراء هنرى الابن ملكا عام ١١٠٤ ، والذى عرف بهنرى الخامس ، ليتولى العرش فى حياة أبيه بعون البابا باسكال الثانى •

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها ، حملت الملكية الألمانية وهنا على وهن ، راح يترك بصماته واضحة على البناء السياسى لألمانيا فى العصور الوسطى ، وازدادت حدته بوفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥ ، اذ انفجر الصراع سافرا بين حزب الولفيين القوى الذى يتزعمه هنرى المتكبر دوق سكسونيا ، والذى لم يكن ابنه ووريثه هنرى الأسد أقل منه صلفا وعنادا ، وبين أسرة الهوهنشتاوفن • وهو الصراع الذى أودى بقوة ألمانيا السياسية الى حد كبير ، رأى فيه أحد المعاصرين ، أوتو أسقف فريزيا ، الراهب السيسترشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد الثالث ، صورة قاتمة لمستقبل ألمانيا ، سجلها فى كتابه «تاريخ المدينتين» Historia de duabus civitatibus بقوله « انه يشعر أن المملكة الألمانية كانت تسير الى زوال ، وأن نهاية العالم قد دنت وليس هناك بارقة أمل الا فى المملكة السماوية التى هى لا ريب آتية »(٦١) • وكان من نتيجة هذا الصراع ابعاد الوريث الشرعى فردريك الهوهنشتاوفن باعتباره ابن أخ هنرى الخامس ، واختيار شخصية مغمورة ، أداة طيعة

(٦١) انظر : Heer, The Medieval history, pp. 283-284.
وأيضا : Strayer & Munro, op. cit., p. 218.

فى يد الأمراء والبابوية ، لوثر ، ليكون ملكا على ألمانيا • وتجلى مدى ضعف الملكية الألمانية ابان عهده ، فى المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الثانى عام ١١٣٣ ، بمنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا ، اقطاعا من البابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية[٦٢] • رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمه اليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة •

وليس أدل على ازدياد نفوذ الاقطاع فى ألمانيا ، واتساع سلطان الأمراء من رفض هنرى الأسد زعيم البيت الولفى الان ، ودوق سكسونيا ، الانصياع لأوامر سيده فردريك بربروسا ، باعتباره فصلا اقطاعيا له ، عندما طلب اليه الاشتراك فى حملته الى ايطاليا عام ١١٧٦ ، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألمانى هزيمة ساحقة فى موقعة لينانو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية ، ونزوله على ارادة البابوية • هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضعف الذى انحطت اليه الملكية الألمانية من جراء الاغراق المستمر لفردريك الأول فى مشكلات ايطاليا ، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سفراء الامبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الامبراطور الألمانى ، وثنى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا ، ووصل صلاته بهذه المصاهرة بالتاج الانجليزى وتخطاه الى الدانمرك • وعندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأماكن المقدسة ، سرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فردريك الهوهنشتاوفنى الألمانى[٦٣] وقد كشف ذلك كله عن أن هذا

---

62) Tout, op. cit., p. 229.

63 Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

وأيضا : Scott, Medieval Europe, p. 253.

وأيضا : Barraclough, op. cit., p. 187.

الفصل الاقطاعي ينتهج سياسة خارجية مستقلة ، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا •

وكان لابد للملكية الألمانية الجريحة أن تصفى حساباتها مع هـذا الفصل المتمرد ، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من ايطاليـا على هذا النحو • وتمثل ذلك فى رفضه المثول بين يدى أقرانه حسـبما تقضى التقاليد الاقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يداه • عندها استجمع فردريك قواه ، واستحث صغار النبلاء بتأييده ، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد اذا ماعاونوه فى تحطيم قـوة خصمه الولفى هذا • فلما تحقق له ما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يفى بما عاهد عليه الأمراء•

ولا شك أن هزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه ، كانت سـببا مباشرا فى تغيير الخريطة الألمانية تغييرا جذريا خاصة فى الشمال ، فقد اختفت الدوقية القديمة ، سكسونيا ، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة، وأصبحت وستفاليا دوقية مستقلة ، واتسعت سلطات رجال الاكليروس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أسـاقفة بريمن ومجدبرج ، وعادت الاقطاعية التي كان هنرى الأسد قد ضمها لسلطانه ، الى الأساقفة[٦٤] • وهكذا اختفت الدوقات القبلية القديمة لتحل محلها وحدات صـغيرة ، وازدادت بالطبع عدد الدوقيات ، وباستثناء سوابيا ، فلم تعد احدى هذه الدوقيات تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية • ولم يعد لقـب الدوق يدل على نفس الأهمية التى كانت له من قبل ، وظهرت قوة أخرى من طبقـة أقل نبالة لكنها لهـا نفس السـلطان مثل حكام تورنجيا وبراندنبرج[٦٥] وكان توزيع السلطة على هذا العدد الكبير من الأمـراء « غير النبلاء » بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين ، يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يتهددها،

64) Z.N. Brooke, A history of Europe, p. 503.
65) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

ولو كان فردريك بربروسا على نفس قدر تفكير معاصريه ، روجر الصقلى وهنرى الثانى ملك انجلترا ، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام ادارى مركزى متميز ، يثبت به دعائم الملكية •

ومن هنا يمكن القول مع « كانتور » ان محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاسمة فى تاريخ الاقطاع الألمانى ، ذلك أن فشل الامبراطور فى ضم أراضى أعدائه الولفيين ، كان يعنى أنه لايستطيع أن يستغل القانون الاقطاعى فى زيادة سلطانه ، كما كان عليه الحال فى انجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وكما حدث بنجاح بعد ذلك فى فرنسا[٦٦] لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا ، بل كان تقليديا فى كل تصرفاته • ولما كان هدفه الامبراطورى فى ايطاليا يسيطر على سياسته ، فان ركيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانيا • ولم يستطع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الاقطاعية • ومن ثم فانه نتيجة للحروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا ، حتى قبل عهد فردريك بربروسا ، راح الملوك يزدادون اعتمادا على « حسن النوايا » من جانب النبلاء[٦٧] ولذا كان عليهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعاونهم وتأييدهم ، خاصة التأييد العسكرى • وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا ، وحقهم فى الوراثة • ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأراضى • وأمست فكرة اقامة دولة لها كيانها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، أمرا عبثا • ولعبت المحلية الاقليمية التى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بالمانيا عن قيام دولة موحدة • ولقد كانت أهم وأخطر هذه الأمور — على حد تعبير باراكلاف — أن المانيا راحت تسير بخطى ثابتة

---

66) Cantor, Mediaval Europe, p. 434.

67) Z.N. Brooke, op. cit. pp. 505-506.

نحو تأصيل وترسيخ النظام الاقطاعى ، وكان هذا شيئا فرغت منه فرنسا فى القرن التاسع ، فراحت القلاع تقام فى كل مكان ، وساعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الاقطاعية ، وبقدر ما حققه الأمراء من مكاسب، بقدر ما خرج التاج فى النهاية خاسرا(٦٨) .

وهناك صورة واضحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا ، ذلك أن وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التى أمضاها بعيدا عن ألمانيا ، وموته غريبا فى بالرمو ، لم يكن الا اشارة البدء للحزبين المتصارعين فى ألمانيا للاقتتال . وطوا لأربعة عشر عاما كاملة (١١٩٨ — ١٢١٢) اصطلت المانيا بنيران حرب أهلية طرفاها فيليب السوابى سليل أسرة الهوهنشتاوفن ، الوريث الشرعى باعتباره أخ هنرى السادس ، اذ كان فردريك ابن هنرى من كونستانس مايزال صبيا قاصرا ، وأوتو «الرابع» دوق برنسويك زعيم الولفيين ابن هنرى الأسد . ودون أن نخوض فى تفاصيل هذا الصراع نقول انه جر الى ساحته النفوذ الأجنبى للتدخل فى الشئون الداخلية لألمانيا(٦٩) اذ وقفت انجلترا الى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكم عدائها للانجليز ، حقوق فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، والذى اعتبر نفسه — رغم ضعف شخصيته ونفوذه الواضحين ، سليل القياصرة الرومان ، وخلع على نفسه لقب فيليب الثانى بعد فيليب الأول العربى الذى حكم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى (٢٤٤ — ٢٤٩) ، ولما كانت البابوية قد وضعت فى اعتبارها ضرورة الاجهاز على الهوهنشتاوفن ، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها فى هذه الحرب ، أو بتعبير أدق على حد قول المؤرخ بيرين ، ان هذه الحرب جرت كما تشتهى البابوية(٧٠) ، فقد أخذت تنقل تأييدها من جانب الى آخر على عهد رجلها الأشهر انوسنت الثالث Innocent III

---

68) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141-147.

(٦٩) للمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع

C.M.H. Vol. VI, pp. 44-79.

وأيضا : Ullmann, op. cit. pp. 206-212.

70) Pirenne, op. cit., p. 285.

الذى أعلن صراحة حقه ، باعتباره راعى الكرسى البطرسى ، فى اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا « مادامت الامبراطورية تستمد أصـــولها وسلطتها من البابوية » أما أصولها فلأن الامبراطور اعتلى عرشـــه ، على يد البابا الذى توجه وسلمه مقاليد الامبراطورية »[٧١] وبناء على هذا الحق ، ومبررات تتفق وهواه ومصلحته السياسية ، أعلن اختيـــار أوتو الرابع دون نظر الى أصحاب الحق الشرعيين ، لكن مع ذلك أخـــذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل اليه رياح الحرب ومطامع كرســـيه أنباء جديدة أو آمالا معقودة • ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذى أرادته البابوية وكان الرابح الوحيد منه فى نهاية الأمر النظام الاقطاعى فى ألمانيا ، والذى راح يثبت جذوره بصورة عميقة ، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصـــارعين من تقديم التنازلات واعطاء الامتيازات للامراء الألمان ، ارضاء لهم على مناصرتهما • وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا فى هذه الفترة مالم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين[٧٢] •

ومن الطريف أن الأمراء ، الذين رفضوا فى البداية العرض الذى تقدم به اليهم فيليب السوابى باختيار فردريك ابن أخيه هنرى السادس ملكا بدلا منه ، حتى لايتهم باغتصاب العرش ، عادوا الآن بعـــد أن أتخمت نفوسهم — وان كانوا مايزالون ينتظرون المزيد — الى التحول بولائهم المنقلب الى اختيار فردريك « الثانى » ملكا ، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه الســـنوات •

وباعتلاء فردريك الثانى عرش ألمانيا ، تدخل المشكلة الايطالية ذروة تعقيدها فى السياسة الألمانية ، اذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه ايطاليا ، وكل مظاهر العداء من جانب البابوية ازاء

---

71) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

72) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

الملكية الألمانية ، وفكرة الامبراطورية التي بذرت هي بنفسها منذ البدء بذرتها ، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الاقطاعي لسلطات امراء العلمانيين والاكليروس على السواء • وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا انوسنت الثالث ، تنازل له فيه عن كل ماكان يناضل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا[٧٣] • يدفعه الى ذلك حداثة سنه واعتماده على تأييد البابوية في التصديق على اختياره للعرش • وثنى ذلك بتعهد آخر للبابا في سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هنرى[٧٤] • ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت ، لانتهى الصراع بين البابوية والامبراطورية تماما ، الا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كل ما جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الامبراطورية • ومن ثم عمل على رفض كل ماقطعه على نفسه ، عند تتويجه ، فقاد الامبراطورية بذلك وأسرته الى حتفها •

فمن المعروف — على النحو الذى أسلفنا — أنه منذ اعتلت أسرة الهوهنشتاوفن العرش فى ألمانيا ، راحت مكانة ايطاليا فى السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنها أمست شيئا لا غنى عنه لالمانيا ، ومثلت حجر الزاوية فى سياستها كلها ، فمن كونراد الثالث حتى فردريك الثانى أضحى التحول كاملا — وذلك بحكم مولده من أم صقلية ، ونشأته فى صقلية ، فأضحى صقليا خالصا[٧٥] ، يريد أن يقيم فى ايطاليا ملكية مستبدة على نسق ما أقامه فى صقلية ، حيث جعل لنفسه الاشراف على القضاء الجنائى ، وحد من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن ، ويعقد مؤتمرا فى كريمونا Cremona سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الامبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية ، ويثير مخاوف البابوية بمحاولاته المستمرة لاثبات سيطرته على جنوب ايطاليا ،

73) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

74) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

75) Pirenne, op. cit., p. 314.

ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنرى ليخلفه على عرش الامبراطورية مما أفزع البابوية [٧٦] ودفعها الى اتهامه من جانب كل من جريجورى التاسع وانوسنت الرابع ، بالهرطقة والتجديف ، ووصفه بأنه « الحيوان الذى جاء ذكره فى سفر الرؤيا .. عبد الشيطان . نبى أعداء المسيح »[٧٧] .

وساعد فردريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحطيمه ، وأن تستغل هذه السياسة فى اثارة الاضطرابات ضده فى المانيا ، وتدبير الثورات والمكائد للخلاص منه والتحالف مع الأمراء لازاحة هذه الأسرة من العرش الألماني وبالتالي صقلية ، وفتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الانجليزى . بل وعرض تاجها على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وهاكون Haakon ملك النرويج ، وأمير من أمراء الدانمرك ، وهنرى راسبى الثورنجى Henry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦ ، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته على الكنيسة الألمانية الى مندوبى البابا . فلما توفى فى العام التالى ، رشح انوسنت الرابع أحد صنائعه هو وليم الهولندى [٧٨] . ولايمكن القول ان أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا ، لكن وجهة نظر انوسنت كانت تتلخص فى اثارة العراقيل والعقبات أمام فردريك أكثر من استقرار العرش الألمانى ، الى الحد الذى أقدم فيه البابا على ارسال مبعوث شخصى له الى المانيا هو فيليب أسقف فيرارا Ferrara يحمل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمام التاج[٧٩] .

---

(٧٦) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ص٢٥٢ — ٢٥٣ ، ودكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى : جـ١ ، ص٣٦٣ — ٣٦٤ وايضا :

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119-124.

77) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٨) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا : راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420-428.

وايضا : Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

79) Scott, op. cit., p. 268.

فعلى امتداد عهد فردريك الثانى أتت صقلية وايطاليا دائما فى المقام الأول ، وحظيت العناصر الايطالية بالمكانة المرموقة دوما على حساب العناصر الألمانية ، حتى أمست ألمانيا ابان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عنه ، هو ابنه هنري أولا ثم كونراد من بعد • لقد كان كل اهتمامه فى المانيا محصورا للحصول على اللقب الامبراطورى فقط •• ومن هنا فان اتجاهه الى ألمانيا كان لتدعيم نفوذه وسلطانه فى ايطاليا وصقلية[٨٠] وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماما لما سعى اليه أوتو الأول ، عندما كان اهتمامه بايطاليا بحثا عن اقرار سلطانه فوق الاكليروس الألماني • وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملا خلال هذه القرون الثلاثة مابين النصف الثانى من القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر •

ويتساءل هنرى بيرين فى صراحة •• ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك ؟ ويجيب فى وضوح : لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة ، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية •• انه لم يكن حتى يعرف اللغة الألمانية[٨١] • بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا[٨٢] • ويعتبرها « أرض الاحراج الكئيبة ، والمدن الموحلة ، والقلاع المنفرة »[٨٣] بينما كانت ايطاليا بالنسبة لفردريك — حسب تعبير كانتروفتش Kantorowicz « مرفأه الأمين من الطوفان ، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك »[٨٤] ومن هنا كانت نظرته الى ألمانيا تحمل فى طياتها كل معانى التشاؤم والقنوط ، ولما كان ايطالى المولد والنشأة ، فان نظرته الى المانيا على هذا

---

80) Barraclough, op.c it., pp. 219-211.

81) Pirenne, op. cit., pp. 314-315.

82) Waley, op. cit., p. 75.

83) Barraclough, op. cit., p. 220.

84) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.

النحو ، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال ، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة ، أمرا لايمكن تجنبه ، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يكون فى مملكته الايطالية والمانيا فى وقت واحد ، ولذا كان الغياب عن أيهما لابد أن يسوق الى تآكل السلطة الملكية بها •

وهذا هو ماحدث بالفعل لسلطة التاج فى المانيا ، من جراء اقامته فى صقلية وترك ابنه هنرى فى المانيا(٨٥) ، وتمثلت خطورة ذلك فى أن هذا الاختفاء للتاج جاء فى أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التى تركت بصماتها الواضحة على الكيان السياسى للسلطة الملكية فى المانيا • مما أعطى الفرصة لكى تخضع المانيا بصورة عملية للامراء الاكليروسيين والعلمانيين • ولما بات كل مايرجوه فردريك من المانيا أن تثير فى وجهه المتاعب ، فقد أصبح على استعداد كى يذهب فى هذا السبيل الى آخر المدى ، وأن يقدم من التنازلات مايهيء له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه فى صقلية وايطاليا • ولعل هذا هو الذى يفسر اقدامه فى عام ١٢٢٠ على منح الاكليروس الألمانى امتيازات واسعة Privilegium in Favorem principum ecclesiasticorum تعطيهم حقوقا مطلقة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، والتصرف فى الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم ، واغفال الادعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها (٨٦) وتنازل عن حق اقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود فى الأقاليم الكنسية ، وترك للأساقفة كل ماكان قد بقى له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأمور التقاضى ووعد بأن ينظر الى أى شخص يصدر ضده قرار الحرمان الكنسى على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون • ولاشك أن هذا التصرف الذى جاء فى صالح الكنيسة ، قد أساء بشكل واضح الى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان ، ذلك أنه لم يعد لديها الان ما يدفعها

---

(٨٥) حكم فردريك الثانى ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ — ١٢٥٠) لم يمكث منها فى المانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعدتين •

86) Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes of Germany, 1220.

الى البحث عن التحالف مع التاج ، ومادامت القوة الحقيقية قد انتقلت الى أيدى الأمراء العلمانيين ، فلن أمراء الكنيسة راحوا ينظرون اليهم باعتبارهم سندهم الزمنى ، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمى لدى الاكليروس تجاه الحكومة[٨٧] وهكذا .. فان ما أقدم عليه فردريك الثانى هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألمانى ، فقد صنع من كل أمير اكليروسى ، ملكا فى الحقيقة وان كان لايحمل اللقب ، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته[٨٨] .

وكانت هذه الامتيازات التى حصل عليها أمراء الاكليروس ، فاتحة خير وبركة للامراء العلمانيين ، وكارثة خطيرة فى الوقت نفسه للكيان السياسى فى المانيا ، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم ومساحات ضياعهم . منتهزين فرصة هجران الملك الألمانى لملكته الألمانية . لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة التى راح يتبعها هنرى « السابع » مخالفا تماما لسياسة أبيه ، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم ، ذلك أن هنرى أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية ،العلمانية والاكليروسية ، ألا وهو الاعتماد على المدن التى كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال ، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد ،

---

87) Scott, op. cit., pp. 266-267.

وأيضا Barraclough, op. cit., p. 235.

88) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثانى يهدف أساسا بهذه التنازلات الى اجتذاب الكنيسة الالمانية الى صفه ، اذا ماحاولت البابوية التعرض له ولسياسته ، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التى قطعها على نفسه عند اعلانه ملكا ، بعدم توحيد المانيا وايطاليا تحت سيادة شخصية واحدة فى ذريته ، وذلك عندما أقدم على اعلان ابنه هنرى (السابع) ملكا على المانيا ، والذى كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعى لأبيه ، الذى لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بما عاهد عليه فى البدء البابوية .

وتلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التى شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الايطالى فى لمبارديا ، وفى ألمانيا كذلك • ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى ، يتمتع بهذه القدرات غير العادية ، والثقافة العالية ، والمهارة الادارية ، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصدى لسلطان أمراء الكنيسة والأمراء العلمانيين ، بل لقد أقدم على اتخاذ عدد من الاجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من « تطاول » المدن داخل الأقاليم الكنسية •

ومن البديهى أن ازدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام الاقطاعى والاقتصاد الزراعى ، والأرض باعتبارها المصدر الرئيسى للقوة الاقتصادية وبالتالى السياسية ، الى الاقتصاد النقدى والأموال والتجارة بصفتها المحرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصادى فيما بعد • وكان هذا يعنى بتعبير آخر انهيار النظام الاقطاعى ، وبتعبير أكثر وضوحا ودقة ، انهيار سلطان الأمراء العلمانيين والكنسيين • وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عاملان رئيسيان ، أولهما ماحصلت عليه مدن العصبة اللومباردية من اعتراف بحقوقها وامتيازات فى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣) ، بمقتضى معاهدة كونستانس Constance ، التى انتزعتها هذه المدن من الامبراطور فردريك الأول بربروسا ، بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على ايطاليا (٨٩) فأصبحت هذه الامتيازات مثالا يحتذى لدى المدن الأخرى فى بقية الدول الأوروبية ، وحرص رجال المدن على الحصول على « البراءات » التى تقرر مثل هذه الحقوق من جانب الأمراء • أما الثانى فهو الفشل الذى منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها فى القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها الى الغرب مفلسين ، أو موتهم فى الشرق ، وضياع الأرض الى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم الى الأراضى المقدسة • ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية

---

(٨٩) انظر : The peace of Constance, January 1183.

والسياسية للارض تتولى الى الظل تدريجيا ، بينما أضحت المدن الناشئة بنشاطها التجارى تلعب دورا هاما راح يتزايد مستقبلا بصفة مستمرة .

ومما يدعو للعجب أن كل ملوك المانيا دون استثناء عصبوا عيونهم عن ابصار هذه الأهمية التى تمثلها تلك المدن ، والأمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضحة فى رفض هنرى الرابع العرض الذى تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأييده وهو فى رحلته الى مذبح الاذلال فى كانوسا ، ليقدم لجريجورى السابع كبرياء الامبراطورية قربانا ، ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن فى أحرج ايات عهده . ووقف فردريك بربا روسا موقف العداء السافر لقومون روما وأرنولد البرشى Arnold of Brescia وللمدن اللومباردية التى أرهقته من أمره عسرا خلال حملاته العسكرية الى ايطاليا ، والتى استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفيق أو يحقق كسبا معينا ، مع أن فردريك بربا روسا كان يدرك يقينا أن أعداءه ، المدن اللومباردية والبابوية ، هما أيضا يحملان لبعضهما عداء كامنا ، وكانت الاستراتيجية تقتضيه أن يعمل كى يظل هذا العداء بينهما قائما ، بل وكان فى مقدوره أن يحقق ذلك بدلا من دفعهما — بسياسته — الى تكوين جيش واحد ضده . وكان عليه فى الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التى لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة ، وأن تحصل له على كل الحقوق ، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق مع أقل خصومه شأنا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية ، التى كانت هى الأخرى خصمهم العنيد . غير أن هذا هو الشيء الذى لم يستطع بربا روسا ، بل ولم يرد أن يقدم عليه[٩٠] وحتى فردريك الثانى نفسه ، الذى كان يجب أن يكون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وادراكا لمغبة هذا الأمر ، استمر هو الآخر فى المراهنة على الجواد الخاسر ، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروسيين

---

90) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.

الذين كانوا من الطبيعى أن يهجروا جانب الامبراطورية فور حصولهم على ما يبتغون •

ولا ريب أن الامتيازات التى منحها فردريك الثانى لرجال الاكليروس ، وخاصة تلك التى تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن ، تعد شيئا خطيرا ، ليس فقط لأنها تشير الى تحلل السيادة الملكية فى الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذين كانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل ، بل لأنها كانت المثل الأخير فى العمل المقدور على كل أباطرة ألمانيا الذى حال دون ادراكهم ، كما أدرك ملوك آل كابيه فى فرنسا ، أن الصراع ضد النظام الاقطاعى ، وهو الشيء الذى لايمكن تجنبه اذا أريد قيام دولة قوية ، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هى الحليف القوى والطبيعى للملوك فى هذا الصراع [٩١] ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنرى الرابع فى أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له ، بعد أن تخلت عنه الكنيسة ، وعاداه النبلاء ، وتمرد عليه حتى ابنه •

ولما كان هنرى « السابع » قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو ، ولما كان يعتبر نفسه فى المرتبة الأولى ملكا ألمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون امبراطورا رومانيا ، وهو ماسار على الضد منه كل خلفاء أوتو الأول ، فقد وضع ثقته كاملة فى المدن الألمانية التى أعطته هى الأخرى تأييدها المطلق ضد عدوهما المشترك ، الأمراء الاكليروسيين والعلمانيين • واستشعر هؤلاء الخطر يأتيهم من جراء السياسة الجديدة التى ينسج هنرى خيوطها ، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التى حصلوا عليها خلال السنوات الطوال التى كان التاج الألمانى يعانى فيها أوجاع الضعف وآلام التدخل البابوى • ومن ثم أعلنوها ثورة عارمة ضد هنرى والمدن ، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد

---

91) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 418-419.

برئت من بعض جراحاتها منذ عشرين عاما فقط • واستدعى ذلك قدوم فردريك الثانى على عجل ليقر الأمور فى ألمانيا ، حيث وجد نفسه مسوقا الى السير فى نفس الدرب الذى اختطه دون تدبر أسلافه • فأقدم على منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (١٢٣١ — ١٢٣٢) حققت لهم ما كان قد أعطاه لأمراء الاكليروس منذ اثنتى عشرة سنة خلت ، فأضحت لهم السيادة كاملة على اجراءات التقاضى فى أقاليمهم ، وحق اقامة دور سك النقود ، واستخدام الطرق والمجارى المائية ، واتخاذ الاجراءات التى تكفل اغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين • بل ان تلك الامتيازات قضت بأن كل القوانين الادارية الجديدة والضرائب المستحدثة ، لا يصبح لها الصفة الشرعية الا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكنسيين لهذه الأقاليم[٩٢] وهكذا فان هذه الامتيازات التى منحت الآن للامراء العلمانيين ، وقرينتها التى سبق اغداقها على الاكليروسيين ، أدت الى اتمام كمال التفسخ السياسى للنسق الاقطاعى فى ألمانيا ، وبصفة قانونية • وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألمانى •

ويعلق المؤرخ الألمانى فردريش هير F. Heer على ذلك ، بالنعى على ما ذهب اليه الامبراطور فردريك الثانى معتبرا اياه أستاذا لتوماس الأكوينى Thomas Aquinas فى شكه المزمن وريبته تجاه المدن[٩٣] ، ففقد فردريك الثانى بذلك نصيرا قويا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد البابوية وحلفائها الأمراء فى داخل ألمانيا • ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن هذا المنهج ، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية التى وقفت الى جواره ، وأعلن الثورة فى ألمانيا ، مما دفع أباه الى القدوم فى زيارته الأخيرة الى المانيا

92) Statute of Frederick II in favor of the princes, 1231-1232.
93) Heer, The Medieval history, p. 71.

وأيضا :

Otto Freiheer, Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen, p. 211.

عام ١٢٣٥ ، ليخمد هذه الثـورة وليقبض على ابنه وينفيه الى أبوليا Apulia ليظل هناك فى سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢[٩٤] .

هكذا أمست الصورة العامة لألمانيا فى منتصف القرن الثالث عشر حالكة السواد ، فالامبراطور مشغول عن بلده بمملكته فى صـــقلية ، والبابوية تسعى حثيثا لتدمر كل شىء فى صقلية وألمانيا على السواء ، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو اليه نفوسهم وشهوة السلطان فى صدورهم ، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مســـتقلة ، واتحـد انفرسان التيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شواطىء البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج ، وازداد نمو المدن الألمانية مثل وورمز وميتز وكولونى وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية . وصدق على الامبراطورية الألمانية ملاحظة المندوب البابوى همبرت Humbert فى مجمع ليون المنعقـد ســنة ١٢٧٤ « انها أمســت الى الضــياع » quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطرة الألمان سلطانهم فى ألمانيا بتدخلهم المستمر فى ايطاليا ، فأصبحوا كمن يبيع رخيصا ليشترى غاليا[٩٥] .

على هذا النحو ، فان انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن باعـدام كونرادينو عام ١٢٦٨ — كما أسلفنا — أو حتى بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، يحدد خاتمة حقبة معينة فى تاريخ ألمانيا ، فقد ولى الان زمان الملوك الأقوياء بها وأقبـل عصر أمراء الاقطاع . لقد حقق التنظـام الاقطاعى فى المانيا آنذاك انتصارا باهرا ، أو بعبارة أخرى ، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السـياسية . وكان الاقتناع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى اخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك ،

---

(٩٤) يختلف المؤرخون حول وفاته ، فيعتقد بعض انه ضاق ذرعـا بعمليات المراقبة المستمرة التى فرضت عليه ، فألقى بنفسه من أعلى قمات منتحرا ، بينما يرجح آخرون أن أباه قد حرض على قتله ، ويدللون على صدق دعواهم بما أقدم عليه القسيس فى عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس « ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه » (تكوين ٢٢ / ١٠) . للمزيد من التفاصـيل انظر : Scott, op. cit. p. 288.

95) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368-370.

هو ضياع جهدهم وطاقاتهم وموارد بلادهم ، بل ودماء الألمان أنفسهم جريا وراء أحلام بعيدة المنال عن السيادة على ايطاليا وعالمية الامبراطورية[٩٦] ، وارتسمت علامات الندم على أقلامهم وهم يلومون على ملوك المانيا ، مبينين أنهم لو قصروا جهدهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ، ولأمكن تحقيق الاتحاد الألمانى الذى تأخر الى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل[٩٧] • فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكد فشل سياسة الأوتويين تجاه الامبراطورية ، يرفضون بعناد الاقرار بفشل هذه السياسة • وبدا لهم جوهريا وجود نوع من الوحدة السياسية ، شأن عالم المسيحية عقيديا • ولكن لا ألمانيا ولا ايطاليا غدت احداهما قوية ، اذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثا فى حملات عسكرية متتابعة الى ايطاليا ، بدلا من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم ، وابتعدت الدولتان قصيا عن حسن الادارة ومركزية السلطة التى تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبى[٩٨] فبينما كان أشهر معاصرى فردريك الثانى ، وهما لويس التاسع ملك فرنسا ، وهنرى الثالث ملك انجلترا ، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة ، الا أن كلا منهما ترك دولة تتجه الى المستقبل ، وليست ظلا لماض فقط ، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما[٩٩] •

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته ، ولكن قليلا منهم هو الذى كان يصلح حتى كى يكون فقط خليفة لأوتو الأول • فمن أجل الامبراطورية نسى كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان ، وفى طريق نضالهم من أجل الامبراطورية ، فشلوا فى تأمين حتى دوقية[١٠٠] بل ليس من المبالغة فى شىء القول

96) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.
97) Ibid, 430-431.
98) Strayer & Munro, op. cit., p. 153.
99) Ibid. 353.
100) Stephenson, op. cit., p. 245.

انه لم يكن هناك فى حقيقة الأمر ملوك لألمانيا ، بل كانوا يعرفون بالملك الرومانى Rex Romanorum والامبراطور الرومانى Imperator Romanorum وليس هناك — على حد تعبير هنرى بيرين — كلمات لوصف ألمانيا الا القول انها ذابت فى الامبراطورية ، بعد أن أهلك ملوكها قواهم فى تبنى السياسة الامبراطورية • حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانا ، لكنهم لم يضعوا أبدا سياسة ألمانية ، وكانوا بصفة مستمرة غارقين فى ايطاليا • لقد قدر عليهم أن تتقطع أنفاسهم فى ملاحقة سياستهم التى وضعوها • ومن ثم أمست ألمانيا ضحية الامبراطورية[١٠١] فقد خرجت فى نهاية الأمر ضعيفة اذا ماقورنت بانجلترا أو فرنسا ، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء ، وزيادة مساحة أراضى التاج ، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما ، اذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم على مناطق يختلف أهلوها لسانا وحضارة وأهواء ، ودخلوا فى صراع مع المدن اللومباردية والنورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لاتنقطع وتدخل مستمر فى شئونهم من جانب البابوية • وحتى فى هذه الأخيرة كان حظ الملك الألمانى أسوأ بكثير من قرينيه فى فرنسا وانجلترا ، فوليم الفاتح تحدى جريجورى السابع ، ووليم الأحمر قاوم أنسلم ، أما هنرى الرابع وبرباروسا فكانا عليهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون فى شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا • هذا بالاضافة الى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة ، والتى أغدقها عليها الملوك الألمان أنفسهم ، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها فى الدول الأوروبية الأخرى[١٠٢] •

---

101) Pirenne, op. cit., p. 140.

102) Bryce, op. cit., p. 213.

وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين ولم الفاتح والبابا جريجورى السابع ، انظر Douglas, William the conqueror, pp. 340-341.
وعن وليم الأحمر وانسلم انظر Barlow, op. cit., pp. 156-158.

ومن الغريب أن هذه النهاية التى آلت اليها كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا ، اذ خرجت الأولى من النظام الاقطاعى بملكية « دستورية » اذا صح هذا التعبير آنذاك ، وآل الأمر فى الثانية الى ملكية مستبدة ، بينما ودعت المانيا دنيا العصور الوسطى ممزقة شر ممزق • نقول ان هذه النهايات لاتتفق مع ماجرى عليه الأمر مثلا بعد انهيار امبراطورية شارلمان ، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما ، ففى فرنسا مثلا دخلت البلاد فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس ، فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار مليكهم أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى سنة ٨٨٧ ، وكونراد دوق فرنكونيا بعد وفاة لويس الطفل ٩١١ • ورغم أن هذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحقهم فى اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سلطة الملكية على المدى الطويل ، الا أن النتيجة المباشرة كانت اعطاء ألمانيا حاكما قويا [١٠٣] وتمثل ذلك بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر ، وبشكل أساسى زمن أوتو الأول وسميه الثانى ، بل وأيضا حتى عهد فردريك بربا روسا ، اذا استثنينا فترة التدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا على عهود هنرى الرابع ولوثر وكونراد ، فقد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادها الموظفون والدوقات والكونتات والأساقفة ومقدمو الأديرة ، يعينهم الملك ويدينون له بالولاء ، ولكن الأمر انتهى الى ملكية تستمد قوتها من مجموعة من الأفصال الاقطاعيين ، من غير ذوى الأصول النبيلة ، علمانيين واكليروسيين[١٠٤] •

والى جانب هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البابا والامبراطور من ناحية ، وهذا والأمراء من الثانية كانت هناك كارثة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا •• ففى سنة

---

103) Strayer & Munro, op. cit., p. 147.

104) Ch. Brooke, Europe in the central M. Ages, p. 157.

١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية مراكز كبرى للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسى الألمانية لاتبارى فى أى مكان آخر فى أوروبا • غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها ، بحيث أصبح الاكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب • وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى المانيا عن عصرها ، ثم ما لبثت أن باتت متأخرة وعتيقة[١٠٥] • بينما عكف العلماء الفرنسيون والايطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى ، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى العالية • فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا النوع قبل القرن الرابع عشر[١٠٦] بل ان فردريك الثانى نفسه عندما أقدم على انشاء جامعة ، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا • لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العالمية وانغماسهم فى المشكلة الايطالية ، ولم يستعيدوا مكانتهم أبدا على الأقل خلال العصور الوسطى •

وهكذا يمكن القول ان ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب الا دورا تافها لا قيمة له على الاطلاق فى السياسة الأوروبية ، رغم أنها تحتل مساحة شاسعة جدا على الخريطة الأوروبية ، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبة من ناحية أخرى فى روسيا

---

105) Cantor, op. cit., pp. 303-304.
De Wulf, Philosophy and Civilization in the Middle Ages, pp, 281-283.

106) Cantor, op. cit., p. 304.

وبولندا [١٠٧] بل ان بعض المؤرخين يذهبون الى أبعد من ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفى هنرى الثالث ، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى[١٠٨] .

لقد كانت ايطاليا جرحا داميا فى جسم ألمانيا ، ظل ينزف طيلة العصور الوسطى حتى أعيا ذلك الجسد ، فأمسى شاحبا الى ذبول ، وتكاثفت عليه مباضع الجراحين تحاول أن تجد له طبابا شافيا وعلاجا ناجعا ، لكن الداء كان قد تأصل فى مباضع الجراحين أنفسهم ، أعنى أباطرة المانيا — الذين استمرءوا .. رغم — الفشل الذى لاحقهم — لعبة التدخل فى المشكلة الايطالية ، فساقوا دولتهم الى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه ، وايطاليا هى الأخرى الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

107) Pirenne, op. cit., p. 331.
108) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق والمصادر

— Adrian IV, (Pope 1154-1159) :

  — Treaty of Adrian IV and William of Sicily, 1156.

  — Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.

  — Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.

— Augustinus, De civitate Die, translated into English in two vols. by Marcus Dods, Edinburgh, 1949.

— Conrad III, (Emperor 1138-1152) :

  — Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) emperor John Comnenus, 1142.

— Einhard, Vita Caroli, translated into English in : two lives of Charlemagne» by Lewis Thorpe, Penguin books, 1969.

— Frederick I Barbarossa (emperor 1152-1190) :

  — Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.

  — Manifesto of Frederick I, 1157.

  — The peace of Constance, 1183.

——————— and Eugene III (pope 1154-1153).

  — Treaty of Constance 1153.

— Frederick II (emperor 1212-1250) :

  — Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

  — Promise of Frederick II to resign Sicily after his coronation as emperor, 1216

  — Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes, 1220.

  — Statue of Frederick II in favor of the princes of Germany, 1213-1232.

— Gregory VII (Pope 1073-1085) :

— Leter of Gregory VII to Henry IV, 1075.

— First deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII.

— Innocent III (Pope 1198-1216) :

— Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

— Innocent IV (Pope 1243-1245) :

— Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.

— Liudprand (Bishop of Cremona)

— Report of his embassy to Constantinople, 968.

— Nicholas II (Pope 1059-1061) :

— Papal election decree of Nicholas II, 1059.

— Philip of Suabia (Emperor 1197-1208) :

— Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1203.

— Robert Guiscard, Oath, of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

— Cantor (N.F.), The Medieval World 300-1300, London 1968.

— Henderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1925.

— Lyon (B. D.), The High Middle Ages 1000-1300, U.S.A. 1964.

— Thatcher (O.J.) & McNeal (E.H.),

— A source book for Mediaeval history Selected domuments illustrating the history of Europe in the Middle Age, New York.

— Tiermey (B.),

— The Crisis of Church & State 1050-1300, with selected documents, U.S.A. 1964.

— The Middle Ages, Vol. I ; Sources of Medieval history New York 1978.

ثانيا : المراجع الأوروبية

— Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.

— Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250 : essays by German Historians, translated and ed. by Barraclough, Oxford 1948.

— The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.

— Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Greek to Boniface VIII, New York 1906.

— Brooke (Ch.), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.

— Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.

— Bryce (J. A.), The Holy Roman Empire, London 1950.

— Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J. B. Bury, Cambridge 1964.

— Cantor (N.F.), Medieval history : the life and death of a civilization, New York, 1966.

وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب فى جزءين ، صدر الأول منهما عن دار المعارف فى عام ١٩٨١ ، والثانى تحت الطبع . وقد تفضل مشكورا باطلاعى على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثانى .

— Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London 1957.

— De Wulf (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.

— Douglas (D. C.), William the Conqueror, London, 1969.

— Freiherer (O.), Constitutional reorganization and reform under the Hohenstafen, trans. from German by Barraclough in, Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233).

— Haskins (ch.), The Normans in European history, New York, 1966.

— Heer (F.), The Medieval world, trans. from German by Janet Sondheimer, New York, 1963.

— Hyde (J. K.), Society and politics in Medieval Italy, the evolution of the civil life, 1000-1350, London 1973.

— Joachimsen (P.), The investiture contest and the German constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129.

— Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 235-279).

— Mundy (J. H.), Europe in theh igh Middle Ages, 1150-1309, London 1973.

— Paoluci (H.), The political writings of St. Augustine, Indiana 1962.

— Pierenne (H.), A history of Europe, London 1951.

— Scott (W.), Medieval Europe, London 1975.

— Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.

— Strayer (J.),, Munro (D.), The Middle Ages, 395-1500, New York 1970.

— Thompson (J. W.), Johnson (E. N.),

— An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York 1965.

Pirenne, op. cit., pp. 314-315.

— Tout (T. F.), The Empire and the Papacy, London 1924.

— Ullmann (W.), A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

— Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire, 2 Vols. Madison and Milwauke 1964.

— Waley (D.), Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, London 1976.

ثالثا : المراجع العربية والمعربة

ابراهيم طرخان (دكتور) :
المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦

اســحق عبيد (دكتور) :
الدولة البيزنطية في عصر باليولوغروس ، منشورات جامعة بنغازى ، طبعة بيروت بدون تاريخ .

جوانفيل (ج) :
القديس لويس ، حياته وحمــلاته على مصر والشــام ، المعروف بمذكرات جوانفيل ، ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشى — القاهرة ١٩٦٨ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
العدوان الصليبى على مصر ، هزيمة لويس التاســع فى المنصورة وفارسكور . القاهرة ١٩٦٩ .

ديفــز (ر . هـ . س) :
شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة١٩٥٩

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول : التاريخ السياسى القاهرة ١٩٥٨ .

فيشر (هـ) :
تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان . ترجمة دكتــور محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٦ .

نور الدين حاطوم (دكتور) :
تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا ، بيروت ١٩٦٧ .

هارتمان (ل . م) وباراكلاف (ج) :
الدولة والامبراطورية : ترجمة وتقديم وتعليق دكتور جوزيف نسيم . القاهرة ١٩٧٠ .

هسى (ج . م) :
العــالم البيزنطى ، ترجمة وتقــديم وتعليق دكتور رأفت عبد الحميد . القاهرة ١٩٨٢ .